وليم شكسبير



تيطس أندرونيكوس

تعريب
أ . ر . مشاطي

إشراف
نظير عبود

دار
نظير عبود

8

تيطس اندرونيكوس

أشخاص المسرحية

ساترنينوس	: بِكْر آخر امبراطور روماني.
بسْيانوس	: شقيق ساترنينوس.
تيطُس اندرونيكوس	: قائد روماني.
مرقس اندرونيكوس	: نائب في المجلس، وشقيق تيطس.
لوسيوس كنْتوس موتيوس	أولاد تيطس اندرونيكوس
لوسيوس الشاب	: ابن لوسيوس وحفيد تيطس
بوبليوس	: ابن مرقس.
اميليوس	: نبيل روماني.
ألاَربوس شيرون ديمتريوس	أبناء تامورا
هارون	: بربري عشيق تامورا.
ضابط	
فلاّح	

نائب، ورسل

تامورا : ملكة القوط، ثم امبراطورة

لافينيا : ابنة تيطس

مُرْضِع.

أهل تيطس، شيوخ ونوّاب، ضبّاط وجنود، خدم.

تجري الأحداث في روما وضواحيها.

الفصل الأول

المشهد الأول

في روما، وسط ساحة أمام الكابتول

(في أحد الجوانب مدفن أسرة اندرونيكوس)

الشيوخ والنوّاب مصطفّون على سطيحة عالية. يدخل من أحد الأبواب ساترنينوس وأعوانه، ومن باب آخر يدخل بسْيانوس وأعوانه. تقرع الطبول وتخفق الأعلام.

ساترْنينوس : أيها النبلاء الأشراف، يا حماة حقوقي، دافعوا عن قضيتي بقوة السلاح، وأنتم، يا مواطنيّ الأعزاء، أسألكم أن تستعيدوا لي بسيوفكم لقبي الذي يؤول إليّ بالوراثة. فأنا بِكْر آخر من حمل تاج امبراطورية روما. إعملوا على إحياء مجد أبي فيّ ولا تهينوا شخصي بحطّ كرامتي.

بسْيانوس : أيها الرومان، أيها الأنصار، أيها المدافعون عن حقي، إذا كان بسْيانوس ابن قيصر لا يلقى حظوة في أعين مملكة روما، احرسوا مدخل الكابتول، ولا تقبلوا بأن

يدنّس أحد عرش الامبراطورية المزدان بالفضيلة والعدالة والعفة والنبل. واسعوا إلى إجراء انتخاب نزيه، واحرصوا أيها الرومان على حرية اختياركم.

(يظهر مرقس اندونيكوس في صدر المسرح وعلى رأسه التاج)

مرقس : أيها الأمراء، بفضل قواتكم وأنصاركم، عليكم أن تنتزعوا بإباء سلطة الامبراطورية. إعلموا ان شعب روما الذي نتولّى رعاية مصالحه سيصوّت بالاجماع ويختار نخبة الرومان، ألاَ وهو اندرونيكوس الملقّب بالتقيّ نظراً إلى ما يتحلّى به من كبر النفس وصدق النيّة في الخدمة والولاء لروما. ليس في المدينة رجل انبل أو أشجع منه بين المحاربين. لقد استدعاه مجلس الشيوخ بعد حملته الموفقة على القوط البرابرة، وبعد أن استعان بأبنائه على أعدائنا الألدّاء لإخضاع أمة رهيبة مدججة بالسلاح. ها قد انقضت عشرة أعوام منذ اليوم الذي تعهّد فيه أن يدافع عن روما فعاقب بقوة السلاح غطرسة مناوئينا. لقد عاد خمس مرات إلى روما من ساحة القتال مضرّجاً بدمائه، ومعه أبناؤه البواسل، راقدين في نعوشهم. واليوم أخيراً، وهو يحمل بقايا شرف أثيل يعود إلى روما تيطس اندرونيكوس الكريم في أوج مجده. فأستحلفكم الآن باسم من تودّون أن تشاهدوه مظفّراً مكافاً، وبإسم حقوق

مجلس الشيوخ والكابتول الذي ترغبون في تكريمه، أن تنسحبوا وتقلعوا عن العنف، وأن تصرفوا أنصاركم، وكمواطنين أوفياء، أن تبيّنوا أمنيتكم وتظهروا امكاناتكم بطريقة سلميّة.

ساترنينوس : كم تهدّئ خاطري كلمات هذا النائب الرقيق السامي التفكير.

بسْيانوس : إتكالي على استقامتك وعلى مروءتك، يا مرقس اندرونيكوس، لأني أكنّ كل احترام وتقدير لك ولذويك ولأخيك تيطس وأنجاله، وأنحني اجلالاً أمام النبيلة لافينيا جوهرة روما، وأنا أضع بين أيديكم جميعاً مصيري وشرفي وحياتي، فأُكرم أخلص أصدقائي، وأكرس عمري لخير الشعب.

(يخرج أنصار بسيانوس)

ساترنينوس : أيها الأصحاب الذين تغارون على حقوقي، أشكركم وأطلب منكم أن تنصرفوا لأني أضع وجودي وقضيتي في خدمة بلادي (يخرج أنصار ساترنينوس). وأنت، يا روما، كوني منصفة وعامليني بعطف لأني أثق بك وأخلص لك الودّ. فافتحوا لي الأبواب ودعوني أدخل.

بسيانوس : أيها النوّاب، أنا أيضاً مرشح مخلص.

(تعزف الموسيقى، وينسحب بسيانوس وساترنينوس إلى داخل الكابتول ومجلس الشيوخ).

(يدخل ضابط يحيط به بعض الناس).

الضابط : أفسحوا الطريق أيها الرومان. فالشجاع اندرونيكوس هو حامي الفضيلة وأنبل أبطال روما، المنتصر في جميع المعارك والحروب التي أخضع فيها أعداء روما وأثقل كواهلهم بنيرها.

(يسمع صوت طبول وأبواق، يدخل اثنان من أبناء تيطس ووراءهما رجال يحملون نعشاً مجلّلاً بالسواد، ثم يدخل اثنان آخران من أبناء تيطس وخلفهما تيطس اندرونيكوس، ثم تامورا ملكة القوط وأولادها الثلاثة ألارْبوس وشيرون وديمتريوس، يتبعهم هارون البربري وجمع غفير من الناس. يوضع النعش على الأرض ويتكلم تيطس).

تيطُس : السلام عليك يا روما الظافرة، وأنت في ثياب الحداد نظير مركب نقل شحنته إلى البعيد وعاد بحمل ثمين إلى المرفأ الذي لم يهجره يوماً. هكذا رجع اندرونيكوس مكلّلاً بالغار ليحيّي وطنه بدموع الفرح الحقيقي، وقد سالت من مآقيه لدى بلوغه أرض روما الحبيبة. فيا أيها المدافع العظيم عن الكابتول، ترأّس هذا الحفل الكريم الذي هبّ لاستقبالك. أيها الرومان، من المقاتلين الشجعان الخمس والعشرين ألفاً، أي نصف العدد الذي

هيّأه الملك بريام، هذا ما تبقّى من الأحياء والأموات.
فللّذين تغلّبوا على الموت، روما تمنحهم حبّها، ولمن أقودهم إلى مثواهم الأخير، الراحة بين أجدادهم الكرام. هنا، سمح لي القوط أن أعيد سيفي إلى غمده. فيا تيطس الشرس، يا من لم تهتمّ بذويك، لماذا تقبل أن يبقى أولادك بدون دفن على ضفاف نهر إستيكس الرهيب؟ (يفتح قبر أسرة اندرونيكوس). ارقدوا ها هنا أيها الأموات بسلام، اعتاد عليه أبناء وطنكم في هذه الأرض الطيبة، أرض الفرح والفضيلة والمجد والنبل حيث أودّ أن يستريح أولادي الشهداء.

لوسيوس : هاتوا أشجع أسرى القوط لنحطّم أعضاءهم ونقدمهم محرقةً على مذابحنا وتعويضاً عما لحق بنا من مِحَن، فيهدأ روع أبنائنا في دنياهم الجديدة وتقرّ عيونهم في مراقدهم.

تيطس : أقدّم لكم هذا، وهو أنبل من بقي على قيد الحياة، وهو بكر هذه المملكة المجيدة.

تامورا : قفوا أيها الأخوة الرومان، يا أبسل المنتصرين، إرحم يا تيطس ما أذرفه من دموع الأسى على ابني الفقيد، وبقدر ما هم أولادك أعزّاء على قلبك، أرجو أن تعتبر إبني مساوياً لهم في عطفي ومحبتي. ألا يكفي أن تعود إلى روما لنزيد انتصارك بهجة ونفرح برجوعك بعد

أن أخضعت الجميع الى مشيئة روما. أيقتضي أن يذبح أولادي في الشوارع بسبب دفاعهم عن وطنهم؟ إن كانت فضيلتك تقوم على القتال في سبيل الامبراطور والوطن، فتلك هي أيضاً فضيلتهم. يا اندرونيكوس، لا تضرّج ضريحك بدمائك. ان كنت تريد التقرّب إلى الآلهة، عليك أن تفعل ذلك برفق وهدوء. لأن الرحمة والعطف هما عنوان النبل الحقيقي. أنت مثلّث السموّ يا تيطس، فأسألك أن تشفق على أخي البكر وتنجّيه.

تيطس : هدّئي روعكِ، يا سيدتي، وسامحيني. هؤلاء هم الأخوة الأحياء الذين أنتم القوط شاهدتم موتهم. وهم يلتمسون ضحيةً عن أخوانهم المذبوحين ذبح النعاج. وابنك هو المختار كقربان، فعليه أن يموت ليهدّئ خواطر المفقودين ويخفّف روع ذويهم المفجوعين.

لوسيوس : خذوه، واضرموا النار، ثم بسيوفنا تعالوا نقطع أوصاله حتى يقضي نحبه.

(يخرج لوسيوس وكنتوس ومرْسيوس وموتيوس، يقتادون ألآرْبوس).

تامورا : تبًّا لتقواكم وشعائركم العاتية الشرسة.

شيرون : لم تكن « ثيثيا » في يوم من الأيام أقلّ وحشيةً وبربريةً منكم.

ديمتريوس : لا تقارنوا بين ثيثيا وروما الفخورة. ألارْبوس سيرتاح.

ونحن سنعيش لنشاهد غضب تيطس يهدّدنا. فتشجّعي يا سيدتي، وليكن أملك في الوقت ذاته كبيراً بأن تسعفك الآلهة التي أتاحت لملكة طروادة فرصة معاقبة طاغية مقاطعة تراقيا في خيمته. يا تامورا ملكة القوط، حين كان أتباعك في أيام عزّهم كانت تامورا ملكة القوط تنتقم من أعداء أقدموا على هذه المجازر الضارية.

(يرجع لوسيوس وكنْتوس وموتيوس وسيوفهم تقطر منها الدماء).

لوسيوس : أنظر، يا مولاي، كيف قمنا بواجبنا كرومان. ها هي أوصال ألاَرْبوس كالأشلاء، بينما أحشاؤه تغذّي نار المحرقة ويتصاعد لهيبها ورائحتها إلى السماء كالبخور. فلم يبقَ علينا إلا أن ندفن أخوتنا بعد أن نشيّعهم في روما بالحفاوة، التي تليق بشجاعتهم على أنغام الموسيقى الحزينة.

تيطس : فليكن ما تشاؤون، وليقم اندرونيكوس بما يحق لهم من اكرام في تشييعهم. (تنفخ الأبواق وتُوضع النعوش في القبور المخصصة لها). ارقدوا بشرف وسلام في ظل بلايا هذا العالم وبؤسه. فهنا لا خيانة تصول وتجول، ولا حسد يرغي ويزبد، ولا حقد يلعن ويطعن، ولا رياح هوجاء تعصف، ولا صَخَب يجلجل حيث يخيّم السكون الدائم. (تدخل لافينيا). ارقدوا بشرف وسلام، يا أولادي.

لافينيا : أرجو لك حياة مديدة وأياماً مجديدة هادئة، يا تيطس. أنظر دموعي الهاطلة على هذه القبور، واسمع نحيبي على اخوتي، وأنا أجثو على ركبتيّ وأسكب دموع الفرح لعودتك سالماً إلى روما. باركني بيدك المنتصرة، أنت يا أوفي المواطنين في روما التي تحيّي ظَفَرك ومجدك.

تيطس : بُوركتْ روما التي حفظت لي حبها على مرّ السنين، ومجدتني حتى في شيخوختي. عيشي يا لافينيا إلى ما بعد موت والدك، ولتكن فضائلك اكليل غار على رأسك المرفوع باستمرار.

(يدخل مرقس اندرونيكوس وساترنينوس وبسيانوس وغيرهم).

مرقس : ليحيا مولاي تيطس، أخي وحبيبي المنتصر الكريم في الدفاع عن روما.

تيطس : أشكرك أيها النائب الكريم، أخي مرقس.

مرقس : وأنتم يا أولاد أخي، أهلاً ومرحباً بكم في عودتكم الموفّقة من الحرب، وقد صانت الأقدار حياتكم لتعيشوا بمجد وأمان. أيها السادة الأجلاّء، لقد فُزْتم بنصر مماثل لما أبديتموه من بسالة أثناء استلال سيوفكم في سبيل وطنكم. انما الظافرون الحقيقيون هم المحتفلون بهذا الموكب الجنائزي الذين بلغوا سعادة سولون، ورقدوا في أحضان الشرف الرفيع. يا تيطس اندرونيكوس، ان

الشعب الروماني الذي أخلصت له الحب على الدوام،
وكنت خير مدافع عنه في أيام محنته، يرسل لك مع
نوّابه هذا الدرع الطاهر الناصع كالثلج، ويقبل بأن
ينتخبك لتتربّع على عرش الامبراطورية بالاشتراك مع أبناء
الامبراطور المتوفّى الحاضرين ها هنا. كن اذاً مرشحهم
والْبَس هذا المعطف، وساعد على إبقاء رأس روما عالياً،
بعد أن تلوي عنقها المتعب ثقل البلايا.

تيطس : لهذا الجسم المجيد لا بدّ من رأس أفضل من رأسي
الذي أخذ يرتعش عجزاً بداعي الشيخوخة. ماذا تطلبون؟
ان أرتدي هذا الثوب لا يضايقكم؟ اليوم تهتفون لي،
وغداً سأغادركم وأستقيل من الحكم ومن الحياة معاً،
وأسبب لكم جميعاً هموماً جديدة. لقد خدمت روما
مدة أربعين سنة ودفنت واحداً وعشرين فتىً، جميعهم
من أشجع الفرسان في ساحات الوغى، ومن أخلص
الأوفياء في خدمة وطنهم الرائع الغالي. يجمل بكم أن
تزوّدوني بعكّاز يساعدني في شيخوختي، لا بصولجان
الملك لحكم العالم الصاخب. لأن آخر من حمله بيده
كان أفضل الحكام طرًّا.

مرقس : الامبراطورية ملك يديك، إن شئت أن تقبلها.

ساترْنينوس : يا لك من نائب طموح.

تيطس : صبراً أيها الأمير ساترنينوس.

ساترنينوس : أيها الرومان، أسألكم أن تنصفوني. وأنتم أيها الأشراف، أشهروا سيوفكم ولا تردّوها إلى غمدها قبل أن أصبح أنا ساترنينوس امبراطور روما. فالأَوْلى بك يا اندرونيكوس أن ترحل إلى الجحيم من أن تسلبني قلوب الشعب.

لوسيوس : أنت تزاحم تيطس العظيم باعتدادك هكذا بنفسك، يا ساترنينوس، حين لا يريد هو لك سوى الخير.

تيطس : تمالك نفسك أيها الأمير، فأنا مستعدّ لأن أردّ لك قلوب الشعب، وإن اقتضى الأمر سلخها عن صدور أصحابها.

بسْيانوس : أنا لا أتملّقك، يا اندرونيكوس، بل أمجدك، وسأظل فخوراً بك حتى آخر أيام حياتي. فإن شئت أن تقوّي جماعتي بضم رجالك اليهم، فإني أحفظ لك هذا الفضل ما حييت، لأن عرفان الجميل هو أثمن مكافأة للرجل النبيل العالي الجبين.

تيطس : يا شعب روما، وأنتم يا نوّاب الشعب، أطلب منكم أن تمنحوا أصواتكم صديقنا اندرونيكوس وتنتخبوه.

أحد النواب : لإرضاء اندرونيكوس الفاضل وللاحتفاء بعودته إلى روما، يقبل الشعب بمن تقترحه أنت أيها الشهم الكريم.

تيطس : أشكركم أيها النوّاب، وأسألكم أن تنتخبوا بِكْر امبراطوركم السيد ساترنينوس الذي أرجو أن تشعّ فضائله على روما كما تنير الشمس أرضنا العزيزة، وان تشمل عدالته جميع رعايا هذه الجمهورية المجيدة. فان شئتم

أن تنتخبوا من أدلّكم عليه، توّجوه بدون تأخير، واهتفوا معي ليحيا امبراطورنا.

مرقس : بصوت الشعب وهتافات جميع طبقاته من الاشراف إلى سائر أبنائه، نختار السيد ساترْنينوس امبراطوراً رفيع الشأن على روما، ونهتف : ليحيا ساترنينوس امبراطورنا.

(تصدح الموسيقى طويلاً).

ساترنينوس : يا تيطس اندرونيكوس، لأجل الخدمة التي أسديتها لي اليوم في انتخابي، أشكرك على كرمك، وأعترف بجميلك عمليًّا. وقبل كل شيء، لتكريم شخصك واسم اسرتك الشريفة، أريد أن أجعل من لافينيا امبراطورتي وملكة روما، وسيدة قلبي، وان أتزوّجها تحت سقف البنتيون المقدس. فهل تعجبك هذه البادرة يا اندرونيكوس؟

تيطس : أجل يا سيدي الجليل. لأني أعتبر هذا الزفاف شرفاً كبيراً لي من لدنك. وهنا لدى مشاهدة روما في هذه السعادة، أكرّس سيفي وعربتي، ومن أسرتُهم، لخدمتك يا مليكي ورئيس جمهوريتي، وامبراطور الكون الواسع، وأعتقد بأن هذه الهدية تليق بمولى روما الكريم. فأسألك أن تقبل تقدمتي كجزية واجبة عليَّ أضعها عند قدميك كغنيمة مفيدة متواضعة.

ساترنينوس : شكراً أيها النبيل تيطس، منقذ حياتي. كم أنا فخور

بك وبعطاياك السخيّة، وستثبت لك روما صدق قولي.
ويوم أنسى ما لك عليَّ من أفضال أسألكم أيها الرومان،
أن تنسوا واجباتكم نحوي.

تيطس (لتامورا) : ها أنت الآن أسيرة امبراطور، يا سيدتي، أسيرة
رجل سيعاملك أنت وحاشيتك بنبل يليق بكرامتك
وبمقامك الرفيع.

ساترنينوس (على حدة) : أيتها السيدة الفاتنة، لا شك اني اختار
جمالك، إن لم يكن اختياري قد تمّ قبلاً. أرجو أن
تعيدي الصفاء، أيتها الملكة الجميلة، إلى هذا الجبين
العالي، وإن تكن امكانات الحرب قد سبّبت هذا التغيير
في أوضاعك، فأنت لم تأتي إلى روما لتكوني أضحوكة،
بل لتُعامَلي دائماً وفي كل مكان كأميرة معزّزة. ثقي
بقولي، ولا تدعي الحزن يسيطر عليك ويحطّم آمالك.
ان الذي يشجّعك يا مولاتي، باستطاعته أن يجعلك أعظم
من ملكة القوط. أولست مسرورة بذلك، يا لافينيا؟

لافينيا : بلى، يا مولاي، لأن جزيل كرمك خير ضمان بأن كلامك
صادر عن شهامتك ومروءتك.

ساترنينوس : شكراً يا عزيزتي لافينيا. نحن الرومان نطلق سراح أسرانا
بدون فدية. أعلنوا عن مشيئتي يا سادة، بصوت الأبواق
والطبول.

(يتحدّث إلى تامورا).

بسيانوس (يمسك بيد لافينيا) : يا مولاي تيطس، أرجوك أن تدع لي هذه الصبية.

تيطس : ماذا تقول؟ هل تتكلم جدّياً، يا مولاي؟

بسيانوس : أجل، أيها النبيل تيطس. أنا مصمّم على تطبيق العدالة بنفسي.

مرقس : خير البر عاجله، كما يقال. وهذا الأمير لا يعتدي على أحد ولا سيّما في المطالبة بحقوقه، واسترجاع ما يخصّه.

لوسيوس : سيستردّه ويحتفظ به ما دام على قيد الحياة.

تيطس : خسئتم أيها الخونة، أين حرس الامبراطور؟ هناك خيانة، يا مولاي. فقد اختُطفَت لافينيا.

ساترنينوس : اختُطفَتْ؟ ومن الذي اختطفها؟

بسيانوس : أوَليس من الحق، في نظر العالم كله، أن يستردّ المرء خطيبته؟.

(يخرج مرقس وبسيانوس مع لافينيا).

موتيوس : يا أخوتي، ساعدوني على اخراجه من هنا. وأنا أحرس هذا الباب والسيف في يدي.

(يخرج لوسيوس وكنْتيوس ومرتيوس).

تيطس (لساترنينوس) : إتبعني، يا مولاي، وسأعيدها اليك قريباً.

موتيوس (لتيطس) : لن تمرّ يا مولاي.

تيطس : ماذا تقول، أيها الولد الشقي؟ أنت تسدّ الطريق عليّ
في روما؟

موتيوس : النجدة، يا لوسيوس، النجدة. (تيطس يقتل موتيوس).

(يدخل لوسيوس).

لوسيوس : أنت ظالم مستبدّ، يا مولاي. لقد قتلت ولدك في مشاجرة
حقيرة.

تيطس : لا أنت، ولا هو، لستما ولدَيَّ بعد الآن. لأن أبنائي
لا يهينونني هكذا. أيها الخائن، أرجع لافينيا إلى
الامبراطور.

لوسيوس : ميّتة، إذا شئت، ولن تكون له زوجة أبداً، ما دامت
مخطوبة شرعياً لغيره. (يخرج)

(ساترنينوس الامبراطور يعتلي المنصّة العالية، ترافقه تامورا وولداها
والبربري هارون).

ساترنينوس : كلا، يا تيطس، كلا. الامبراطور ليس بحاجة اليها ولا
اليك، ولا الى أي شخص من أمثالك. لن أتّكل في
المستقبل بتهاونٍ على من سخر مرة مني، ولا على
أولادك الخونة الوقحاء المتفقين على اذلالي هكذا. ألا
يوجد في روما غير ساترنينوس ليجعل هؤلاء منه العوبة؟
هذه الأفعال يا اندرونيكوس، لا تلائم عجرفتك الغليظة،

وان كنت توصلت إلى الاستيلاء على الامبراطورية.

تيطس : تبًّا لك من مسخ دنيء. ما هذا الكلام المبطن بالملامة؟

ساترنينوس : اذهب في سبيلك، واترك هذا النفاق لمن تبجّح باشهار سيفه. سيكون صهرك باسلاً ورجلاً شهماً لا ينضمّ إلى أبنائك الأنذال ليزرع الفوضى في جمهورية روما.

تيطس : هذه الأقوال شبه سكاكين تغرس في قلبي.

ساترنينوس : الآن، يا تامورا الحبيبة، ملكة القوط، أنت في روما كإلهة فاتنة، إن قبلْتِ اختياري الفجائي. أصغي إليّ، يا تامورا : لقد اخترتك زوجة لي، وأريد أن أجعلك امبراطورة روما العظيمة. تكلمي يا ملكة القوط، وصفّقي لاختياري إياكِ. أُقسمُ بجميع آلهة روما، بما أن الكاهن والماء المقدّس قريبان، وبما أن المشاعل تنشر أضواءها الساطعة علينا، وكل شيء جاهز للعرس، لن أنظر إلى شوارع روما، ولن أصعد أبداً إلى قصري إلا إذا رافقتني أنت كشريكة حياتي.

تامورا : وأنا هنا، أمام السماء، أقسم لك في روما يا ساترنينوس، اذا رفعتني إليك أنا ملكة القوط سأكون لك خادمة مطيعة وزوجة وفيّة وأمًّا محبة لأولادك.

ساترنينوس : هيا نصعد إلى البنتيون، أيتها الملكة الجميلة. رافقوني، أيها السادة، أنا امبراطوركم وخطيبتي الحبيبة التي خصّتني بها السماء، أنا الأمير ساترنينوس وقد وافقت عليها

بحكمتي السديدة. وهناك نتمّم مراسم حفلة الزفاف.

(يخرج ساترنينوس وحاشيته وتامورا وأولادها، ثم يخرج هارون وجماعة القوط).

تيطس : أنا لست مدعوًّا لمواكبة الخطيبة. متى، يا تيطس، تسنّى لك أن تظل هكذا وحيداً مجرداً من الشرف وغائصاً في الاهانة إلى أذنيك؟.

(يعود مرقس ولوسيوس وكنتوس ومرسيوس).

مرقس (يشير الى جثة موتيوس) : أنظر، يا تيطس، انظر الى ما جَنَتْه يداك. لقد قتلتَ في شجار بذيء ابنك الفاضل.

تيطس : أيها النائب الأبله. هذا ليس ولدي. أنت وهو لستما سوى خائنين. وشركاؤك في الجرم قد لطخوا بالعار شرف اسرتي. فأنت أخ جاحد، كما هو إبن عاقّ.

لوسيوس : لكن عليك أن تؤمّن له قبراً لائقاً. يجب أن تدفن موتيوس بقرب اخوتنا!

تيطس : أغرب عن وجهي، أيها الخائن. لن يرقد أبداً في هذا الضريح. فهذا المدفن موجود منذ خمسمئة سنة، وقد رمّمته بعناية ولن أدفن فيه إلا الجنود الذين يخدمون روما. فهذا المكان مخصص لراحة أصحاب المجد لا للأشقياء الذين يُقتلون في مشادة. يمكنك أن تدفنه أينما شئت ما عدا هذا المكان.

مرقس : يا مولاي، هذا غريب عن شهامتك وكرم أخلاقك. ان أمانة ابن أخي موتيوس تشفع به وتستحق أن يدفن صاحبها مع أخوته.

كنتوس ومرسيوس : سيدفن إلى جانبهم وسنتبعه نحن إلى القبر.

تيطس : أسيدفن حقاً معهم؟ من الأحمق الذي يقول ذلك؟

كنتيوس : رجل مستعد أن يدعم هذا القول في كل مكان إلا هنا.

تيطس : هل تريد أن تدفنه هنا رغماً عن ارادتي؟

مرقس : كلا، أيها النبيل تيطس. لكننا نستحلفك بأعز ما لديك أن تسامح موتيوس وتدفنه.

تيطس : أنت، يا مرقس، تدوس كرامتي، ومع هؤلاء الأولاد تطعن شرفي. لقد اصبحتم كلكم من أعدائي، فانصرفوا عني، ولا تضايقوني وتزيدوا غيظي.

مرسيوس : مسكين، فَقَد رشده. علينا أن ننسحب.

كنتيوس : أنا لا أنسحب طالما بقيتْ جثة موتيوس غير مدفونة.

(يركع شقيق تيطس وأولاده).

مرقس : الطبيعة تتوسّل إليك، يا أخي.

كنتيوس : والطبيعة ذاتها تلتمس منك ذلك، يا أبي.

تيطس : اصمتوا جميعاً، اذا شئتم أن لا ينالكم مكروه.

مرقس : أيها الجليل تيطس، لا تنسَ أنك شقيق روحي.

لوسيوس : وانك يا أبي علّة وجودي ووجود أخوتي.

مرقس : اسمح لي، أنا شقيقك مرقس، بأن ادفن هنا في مقرّ الفضيلة، ابن أخيك النبيل الذي مات بشرف في سبيل قضية لافينيا. أنت روماني، فلا تكن بربريًّا. ان اليونان في مثل هذا الموقف قد دفنوا أجاكس الذي انتحر، وهو ابن لا يرث العاقل الذي قد إلتمس بلطف أن يدفن بصورة لائقة، فلا تسدّ مدخل هذا المكان في وجه موتيوس الشاب الذي كان بهجة حياتنا.

تيطس : انهض، يا مرسيوس. هذا أفظع يوم صادفته إلى الآن. اذ أهانني أولادي في قلب روما. لا بأس ادفنوه، ثم ادفنوني أنا أيضاً.

(يوارى موتيوس في القبر).

لوسيوس : أرقد هنا يا عزيزي موتيوس مع أهلك إلى أن نزيّن مثواك الأخير بأمجاد الحرب (يركع الجميع). لن ينتحب أحد لفقد النبيل موتيوس، لأن كل من يموت في سبيل الفضيلة يحيا بالمجد ويتمتع بالخلود.

(يخرج الجميع ما عدا مرقس وتيطس).

مرقس(لتيطس): يا مولاي، لتبديد هذا الأسى الشديد عنك، أرجوك أن تخبرني كيف تسنى لملكة القوط أن تجلس على عرش روما.

تيطس : لست أدري يا مرقس، لكن ذلك قد تمّ. ولا أعلم ان كان هناك من مؤامرة أو لا. السماء وحدها تعرف ذلك. أوليست مدينة للرجل الذي أتى بها من بعيد لتستأثر بهذا الحظ السعيد؟

مرقس : أجل، وستكافئه بطريقة نبيلة.

(تصدح الموسيقى.من جهة يدخل الامبراطور ساترنينوس وتامورا وشيورن وديمتريوس وهارون البربري، ومن جهة أخرى بشيانوس ولافينيا وغيرهما).

ساترنينوس : هكذا نجحت خطتك، يا بسيانوس. اسعد الحظ أيامك وأتاح لك الرجوع إلى زوجتك الجميلة.

بسيانوس : وأنت، اعادتك السماء إلى زوجتك يا مولاي. لا أقول أكثر من هذا، ولا أتمنى لك أقلّ منه. والآن، استأذنك بالانصراف.

ساترنينوس : أيها الخسيس، مهما كانت قوانين روما، فأنت خائن وستندم يوماً أنت وجماعتك على هذا الضرب من الاغتصاب.

بسيانوس : لماذا تقول ان ذلك ضرب من الاغتصاب، يا مولاي؟ هل يعتبر جرم أن استردّ ما يخصني، أي خطيبتي الحبيبة التي ستصبح زوجتي. على روما أن تطبّق قوانينها. أما أنا فقد استوليت فقط على ما يخصني.

ساترنينوس : حسناً يا سيدي. لهجتك مقتضبة معنا. واذا عشنا سنناقشك الحساب.

بسيانوس : يا مولاي، سأردّ عليك بأحسن ما يسعني أن أجيب عما فعلته، وأنا أتحمل كل المسؤولية. إني أنبّه سيادتك باسم جميع واجباتنا نحو روما، إلى أن هذا الشخص النبيل، أعني السيد تيطوس، قد تحمّل الذل والاهانة في سبيل ردّ لافينيا اليك، وقتل بيده ابنه الشاب وفاءً لشخصك. فالواجب يقضي بأن تردّ له جميله يا ساترنينوس. لأنه بتصرفه هذا قد برهن على أنه أب وصديق بالنسبة إلى روما وإليك أيضاً.

تيطس : أيها الأمير بسيانوس، كفّ عن تبرير أعمالي. فأنا لم تلحقني المذلة والاهانة إلا بسببك وسبب هؤلاء جميعاً. وروما والسماء تشهدان على ما أكنّه لساترتينوس من الحب والاحترام.

تاموري (للامبراطور) : يا مولاي الجليل، ان كنت، أنا تامورا، قد نلت حظوة في عينيك، يا أميري، اسمح لي أن أتكلم عنكم جميعاً بدون تمييز، وألتمس منك أنت حبيبي أن تنسى الماضي وأساه.

ساترنينوس : ماذا تطلبين، يا سيدتي، هل أُهان علناً، وأتحمل ذلك بجبن دون انتقام؟

تامورا : كلا، يا مولاي. لتردعْني آلهة روما عن قبول اهانتك.

لكني، بشرفي، أجسر على تأكيد براءة مولاي تيطس
الذي يدلّ غضبه الظاهر على أنه يتألم بسبب هذا الوضع.
فأرجوك نزولاً عند طلبي أن تنظر إليه بعين العطف،
وان لا تخسر مثل هذا الصديق الوفي استناداً على افتراض
باطل، ولا تحطّم قلبه الرقيق، بنظرتك القاسية هذه اليه.
احتفظ بصداقته. أنت لم تتربع على العرش إلا منذ فترة
وجيزة، وأخشى أن ينقلب عليك الأشراف والنبلاء،
وينحازوا إلى تيطس، فيخلعوك نظير مجرم ناكر الجميل.
الأمر الذي تكرهه روما كأنه جناية فظيفة. عليك أن
تصغي إلى الحاحي، وتدعني أتصرف لصالحك. سأجد
يوماً مجالاً لقتلهم جميعاً وابادة رجالهم وعيالهم، من
الأب الشرس إلى الأبناء وكلهم خونة. فقد سببوا موت
ولدي الحبيب. وسأعلّمهم كم يكلف ترك ملكة تجثو
في الشوارع وتلتمس العفو بدون جدوى. (بصوت
مرتفع) : هيا هيا يا حبيبي. هيا يا اندرونيكوس. أنهض
هذا العجوز، وانعِش هذا القلب الذي توشك عاصفة
غضبك أن تمزقه شرّ تمزيق.

ساترنينوس : كفى يا تيطس، كفى. فالغلبة للأمبراطور.

تيطس : أشكرك يا صاحب الجلالة نظيرها، لأن هذه النظرات
تسكب في صدري حياة جديدة.

تامورا : أنا صرت جزءاً من روما، بما أني اصبحت رومانية

بالنسب. وعلي أن أنصح الامبراطور اذا لزم الأمر. في هذه الأيام جميع المشاحنات تنتهي، يا اندرونيكوس. واعتبر كشرف كبير، قضية مصالحتك وأصدقاءك. أما أنت أيها الأمير بسيانوس، فقد وعدت الامبراطور علناً بأنك ستكون في المستقبل ألطف وألين عريكة. لا تخافوا يا سادة. وكذلك أنتِ، يا لافينيا، من أن تتبعوا توجيهاتي، وأن تركعوا وتطلبوا عفو جلالته.

لوسيوس : أجل، اننا نقسم لسموّه أمام السماء بأننا تصرفنا بكل اعتدال، ونحن ندافع عن شرف اختنا وشرفنا.

مرقس : هذا ما اؤكده هنا على مسؤوليتي.

ساترنينوس : انسحبوا، ولا تتكلموا بعد الآن، ولا تضايقونا أكثر مما فعلتم.

تامورا : هيا هيا، يا عزيزي الامبراطور. يجب أن نظل جميعنا أصدقاء. فالتائب وأبناء أخيه يطلبون منك السماح وهم جاثون. فلا أريد أن يُردّ طلبي. إلتفت يا حبيبي.

ساترنينوس : إكراماً لمودتك ومودة أخي الحاضر ها هنا، ونزولاً عند رجاء الفاتنة تامورا، أصفح عن كل إساءات هؤلاء الشبان. انهضوا جميعاً. وأنت يا لافينيا مهما تركتني هنا أبدو كرجل خشن الطباع، فقد وجدت صديقة وأقسمت بكل عزيز لديّ أن لا أدع الكاهن يغادرني قبل أن أتزوج. هيا، اذا كان بلاط الامبراطور قادراً على

الاحتفال بزوجين، أكون أنا أحد مدعوّيك مع لافينيا وأصدقائك، وسيكون ذلك اليوم يوم حب عميق، يا تامورا.

تيطس : غداً، إن وافقت، يا صاحب الجلالة، نذهب إلى صيد النمور والغزلان، بكامل عدّتنا ورجالنا وسنعرّج عليك يا مولانا، لنتمنى لك نهاراً سعيداً.

ساترنينوس : حباً وكرامة يا تيطس . وشكراً جزيلاً. (يخرجون).

الفصل الثاني

المشهد الأول

في روما، أمام قصر الامبراطور

(يدخل هارون)

هارون : اصعدي الآن يا تامورا إلى الأولمب بعيداً عن متناول الأقدار والعرش في حمى دوي الرعد ولمع البرق، فوق مزالق الحسد الزميم الهدّام. ونظير أشعة الشمس الذهبية التي تحيي الصباح وتنير المحيط وتسير نحو الأفق الواسع في مركبتها الرائعة وتشرف على شوامخ الجبال، هكذا هي تامورا. فلتمجيد نبوغها يواكبها كل شرف الأرض وتنحني أمامها الفضيلة وترتجف لدى رفّة جفنيها. اذاً، هيّئ يا هارون نفسك، ونظّم أفكارك لترتفع الى مصفّ سيدتك الامبراطورة وتكون في مستواها الشامخ. لقد جررتها طويلاً خلفك كسجينة موثوقة بروابط حبّك

ومعلّقة بأنظاري أنا هارون أكثر مما كانت بروميتا في القفقاس. بعيداً عني، ليس لها سوى مظهر العبيد والخضوع الذليل. أنا أريد أن أكون ساطعاً كاللآلىء، براقاً كالذهب الوهاج، لأخدم هذه الامبراطورة الحديثة العهد. قلت : لأخدم، بل لأسعد مع هذه الملكة، هذه الإلهة الشبيهة بسيراميس، هذه الحورية الساحرة التي ستفتن روما ساترنينوس وتشهد غرق الامبراطور والامبراطورية معاً. فما هي هذه العاصفة؟

(يدخل شيرون وديمتريوس وهما يتهاتران).

ديمتريوس : شبابك يا شيرون لم يكتسب بعد توقد الذهن، وعقلك لم يتزوّد بعد بالخبرة اللازمة. لكي تفرض نفسك على هذه المرأة التي رضيت بي، وعلى ما علمت، يمكنها أن تتدلّه بحبي.

شيرون : أنت مزعج في كل المجالات يا ديمتريوس، ولا سيما في تطفلك وادعائك السيطرة عليّ من خلال تبجّحاتك. الفرق بيني وبينك ليس سنة أو سنتين لتجعلك متفوّقاً عليّ فتزيد فرص نجاحك. أنا قدير مثلك وماهر نظيرك في خدمة سيدة بارعة الحسن، فاستحق مودّتها. هذا سيثبته لك سيفي حين يدعم حقوقي وولهي في هوى لافينيا.

هارون : حذارِ، حذار. فهؤلاء العشاق لا يودون إن تخلدوا إلى الهدوء والسكنية.

ديمتريوس : هيا أيها الولَدْ الساذج. ألأن والدتنا قد قلّدتك بدون تبصّر سيفاً للزينة سكرت الى حد بتًّ تهدّد ذويك. هيا، هيا ارجع سيفك إلى غمده حتى تكتسب براعة امتشاقه.

شيرون : بانتظار حدوث ذلك يا مولاي، وبالقليل مما لديّ من خبرة التصرف سأجسر على القيام بذلك.

ديمتريوس : أجل، أيها الولد المسكين. هل أصبحت إلى هذا الحدّ شجاعاً؟

(يستل سيفه).

هارون : ما الأمر، يا سادة؟ أهكذا قريباً من قصر الامبراطور تتجاسران على المهاترة بصورة مكشوفة. أنا أعلم مصدر هذه المشاحنات بينكما، ولا أريد أن أكون سببها ولو عرضت عليّ أكداس من الذهب الرنان، لأن مروّجي هذه الفتنة معروفون، وفوق ذلك، لا تريد أمك النبيلة أن تُهان هكذا في بلاط روما. فباسم الحياء استحفلكما أن يردَّ كل واحد سيفه إلى غمده.

ديمتريوس : لا، أنا لن أعيد سيفي إلى مكانه قبل أن أغرزه في صدرك، وأن أردّ كيدك إلى نحرك، واجعلك تبتلع الاهانة البزيئة التي وجهتها اليّ.

شيرون : تراني لذلك على أتمّ الاستعداد، وأنا مصمم على عمل ما صرّحت به. فأنت لست سوى جبان يلعلع لسانك ولا تجرؤ على استعمال سلاحك.

هارون : قلت لك : كفى. بربّ القوط أقسم لك ان هذه المشادة الحقيرة ستهلكنا جميعاً. ألا تدركون، يا سادة، مدى ما يمثله من الخطر علينا، أن يدوس هذا الأمير حقوقنا المشروعة. ماذا أرى؟ هل ان لافينيا مصمّمة الى هذا الحدّ، أم أن بسيانوس المنحطّ يتجاسر على تحريك هذه النزاعات لأجل حبها بدون أن تردّعه أية مقاومة أو عدالة أو انتقام؟ أيها السادة الشجعان، كونوا على حذر. فلو علمت الامبراطورة بسبب هذا الخلاف، لن تكون راضية أبداً.

شيرون : سيّان عندي، إن علمت بذلك هي وكل أهل الأرض أو لا. فأنا أحب لافينيا حباً لا مثيل له في الكون أجمع.

ديمتريوس : أيها الصعلوك، تعلّم أن تختار نصيباً قريب المنال أكثر من لافينيا، لأنها أمل أخيك البكر.

هارون : هل أنت مجنون؟ ألا تدري مدى غضب الرومان وقلة صبرهم وعدم قبولهم بأي خصم في الحب؟ فأنا أعلن لك، يا سيدي، انك تسعى إلى حتفك بهذه المزاحمة.

شيرون : سأجابه الموت ألف مرة في سبيل الوصول إلى من أهوى.

هارون : تريد الوصول اليها، ولكن كيف؟

ظمأ رغباتكم بعيداً عن أنظار السماء، وتُشبعون نزواتكم من مفاتن لافينيا.

شيرون : ان نصيحتك، يا صاح، تفوح منها رائحة الجبانة والخساسة.

ديمتريوس : عليّ أن ألجأ إلى جميع الوسائل الصالحة منها والطالحة، حتى يتسنى لي أن أرشف من النبع العذب ما يُطفئ لظى أشواقي ولواعج صبابتي، ولا بأس عليّ ان شربت الماء عكراً في بعض الأحيان.

المشهد الثاني

في غابة قريبة من روما

(يدخل تيطس اندرونيكوس وأبناؤه الثلاثة وأخوه مرقس، على صوت الموسيقى ونباح الكلاب).

تيطس : بدأ الصيد، والصبيحة صافية نيّرة، والحقول عابقة بالعطر، والغابات زاهية الاخضرار. فأفلتوا الكلاب هنا وحرّضوها على النباح لتوقظ الامبراطور وزوجته الحبيبة، وتدعو الأمير إلى الاسراع إلينا. أنفخوا أبواق الصيد لتتجاوب أصداؤها في أنحاء البلاط. تعالوا نواكب، يا أولادي،

شخص الامبراطور بحرص، فقد نمْتُ هذه الليلة بقلق،
لكن طلوع النهار هدّأ خاطري فداخلني بعض الارتياح.

(يسمع نباح كلاب ثم صوت نفير. يدخل ساترنينوس وتامورا وبسيانوس ولافينيا وشيرون ودمتريوس وحاشياتهم).

تيطس : الف تحية ألقي عليك، يا صاحب الجلالة، وعليك أيضاً يا مولاتي. وعدتُ سموّكِ باسماعكِ نفير الصيد، وها أنا قد بَرَرْتُ بوعدي.

ساترنينوس : لقد طرقت سمعي نبراته القوية يا سيدي بشكل مبكر بالنسبة إلى عروسين جديدين.

بسيانوس : ما رأيك، يا لافينيا؟

لافينيا : لا تصدّقه. فقد استيقظتُ باكراً، أي منذ أكثر من ساعتين.

ساترنينوس : أحضروا لنا الجياد والعربات إلى هنا. وهيا بنا إلى الصيد (لتامورا) : سترين كيف يتمّ صيدنا الروماني، يا مولاتي.

مرقس : لديّ كلاب، يا مولاي، تهاجم أشرس النمور وتتسلّق أعلى المرتفعات.

تيطس : وأنا، حصاني يلاحق الطريدة في جميع الدروب ويجتاز السهول كالخطّاف.

ديمتريوس (لشيرون بصوت خافت) : نحن لا نصطاد، يا شيرون، على ظهور الجياد ولا بواسطة مجموعة الكلاب. لكننا نأمل

لأن فيلومال التي تخصّه تفقد اليوم لسانها، وأبناءك سيسلبون عفتها ثم يغسلون أيديهم الآثمة من دم بسيانوس المغدور. أترين هذه الرسالة؟ أرجوك أن تأخذيها وأن تعطي الملك هذا المغلف. والآن لا توجّهي اليّ أيّ سؤال. فقد شاهدنا البعض، وبحوْزتك قسم من غنيمتنا المنشودة، وهم لا يشكوّن أبداً بخيبة أملهم.

تامورا : بالله عليك، أيها البربري، أنت عندي أغلى من حياتي.

هارون : لا تنبسي ببنت شفة، أيتها الامبراطورة العظيمة. فها هو بسيانوس يعود. حاولي أن تشاجريه، وأنا سأحرّض أبناءك على مساندتك مهما كانت حجتك. (يخرج).

(يدخل بسيانوس ولافينيا).

بسيانوس : من أرى هنا؟ امبراطورة روما اللامعة بعيداً عن حاشيتها؟ أم هي الإلهة ديانا المتمثّلة بملامح ملكتنا، وقد غادرت غاباتها المقدسة لتشاهد الصيد في هذه الأحراج الفسيحة؟

تامورا : يا لك من مراقب جسور على خصوصياتي الحميمة. لو كانت لي قدرة ديانا كما يقال، لكنت غرست حالاً قرنين في جبينك على غرار أكتيون، ولجعلت كلاب الصيد تطارد أطرافك المحوّلة إلى قوائم، أيها الدخيل المتطفّل.

لافينيا : بإذنك أيتها الامبراطورة اللطيفة، أقول ان من يسمع هذا

الكلام يظنك سخيّة في توزيع القرون. لا شكّ في أنك
وهذا البربري كنتما على انفراد تحاولان القيام بهذه
التجربة. ليحفظ الإله المشتري اليوم زوجك من هذه
الكلاب ما دام من أكبر الخسائر، اعتبار زوجك وعلاً
شارداً في الغابات.

بسيانوس : صدقيني يا سيدتي، هذا البربري يضفي على شخصك
انعكاساً خفيًّا كريهاً دنيئاً. لماذا أنت بعيدة عن حاشيتك؟
ولماذا نزلت عن جوادك الأبيض كالثلج لتتيهي في هذه
البقعة المعتمة برفقة هذا البربري؟ هل من رغبة خبيثة
دفعتك إلى هنا؟

لافينيا : بما انك قُوطعت هكذا في انطلاقتك، فمن المعقول
ان تتهمي مولاي بالوقاحة (لبسيانوس) أرجوك أن تطاوعني
في الذهاب كي تتمتع هذه المرأة بحبها الأسود كالغراب.
فهذا الوادي يلائم كثيراً مثل هذا الانحراف.

بسيانوس : سأخبر أخي الملك بالموضوع المريب.

لافينيا : منذ زمن طويل هذه الانفلاتات تبرز انحرافه. أوليس
غريباً أن يكون هذا الملك الطيب القلب مخدوعاً؟

تامورا : أنّى لي الصبر على احتمال ذلك؟

(يدخل شيرون وديمتريوس)

انظري اليها بعين محبتك كما ترنو قطرات المطر إلى الصخر الأصم.

لافينيا (لديمتريوس) : متى ثار صغار النمور على امهاتها لا ترتدع. لا تعلمها الغضب، لأنها هي قد علمتك اياه، واللبن الذي أرضعتك اياه قد حوّلك إلى حجر لأنه مشبع بالشراسة، ولأن جميع الأمهات لا ينجبن أولاداً يشبهونهن. (لشيرون) توسّلْ اليها أنتظر عطفها كامرأة.

شيرون : ماذا تقولين؟ هل تريدين أن أثبت اني لقيط ابن زنى.

لافينيا : هذا صحيح. فالغراب لا يفرّخ قبّرة. مع ذلك سمعت أن الشفقة حركت عواطف الأسد، وكم أريد أن أرى شاهداً على ذلك، فترك براثنه الحادة، تنْشُبُ. يقال ان الغربان تطعم الفراخ المهجورة، بينما فراخها هي تظل جائعة في عشّها. عندما يقول فؤادك المتحجّر لا، كوني انت نحوي طيبة القلب، أو على الأقل أظهري لي بعض الرفق.

تامورا : لا أدري ما معنى هذا. خذوها من أمامي.

لافينيا : دعني أنوّر طريقك. فباسم أبي الذي منحك الحياة حين كان بوسعه أن يقضي عليك، لا تكوني ظالمة ولا تصمّي عني أذنيك بقساوة.

تامورا : عندما لا تهينني أنت شخصياً، لا يمكنني أنا بسبب أبيك... تذكرا يا ولديَّ تلك الدموع التي سكبتها سدى

لانقاذ أخيكما خشية أن يذهب ضحية الغدر. لكن الوحش اندرونيكوس لم يقبل بأن يسايرني. خذاها اذاً، وافعلوا بها ما شئتم. وبقدر ما تسيئان معاملتها، تعظم محبتكما في صدري.

لافينيا : أملي كبير يا تامورا ان تستحقي لقب الملكة الصالحة، ثم أن تقتليني بيدك هنا. لأني منذ زمن طويل لم أعد أرغب في الحياة. أنا بائسة شقية حكم عليّ بالاعدام منذ موت بسيانوس.

تامورا : ماذا تنتظرين مني إذاً؟ أيتها المرأة القاسية، اتركيني وشأني.

لافينيا : انّ ما اشتهيه هو الموت حالاً، وما يمنعني لساني عن التلفظ به حياءً، ليس أحطّ منه خسّة. انقذيني من دعارتهما التي اعتبرها أفظع من الموت، ثم ارميني في حفرة سحيقة حيث لا يستطيع نظر الناس أن يكتشف جسدي. اصنعي هذا، وكوني قاتلة مشفقة محبّة.

تامورا : هكذا أسرق من ابنيّ أجرهما. كلا، أريد أن يشفيا غليلهما ويتشفّيا بما تنالينه من قهرٍ وعذاب.

ديمتريوس : هيا سيري. فقد اسْتَبْقَيْتِنَا هنا طويلاً.

لافينيا : لا سماح، ولا أي فضل يستمدّ من أمرأة. تبًّا لك مم مخلوق قبيح، جلبت العار على بنات جنسنا كأنك عد لدود. ألا فليحلّ بكِ الهلاك والزوال.

مرتيوس : في أصبعه خاتم يلمع حجره الكريم ويضيء السرداب كأنه مشعل ينير حدّين علاهما شحوب الموت في قعر الحفرة المشؤومة. هكذا كان القمر يرسل أشعته الخافتة على الملك بريام حين مات سابحاً بدمه الكريم. ساعدني يا أخي بيدك المرتجفة. فإن كان الرعب قد استولى عليك مثلي، أعنّي على الصعود من هذه الهوّة الشنيعة التي سال فيها الدم كأنه أحد أنهار الجحيم.

كنتوس : مدّ لي يدك لأتمكن من اخراجك. فإن لم يعد لي من عزم على خدمتك، أنا أخشى أن يشدني هذا الشدق المفتوح ليبتلعني ويطويني كالقبر المظلم الذي ضمّ رفات بسيانوس. حقاً لم يعد لي من قوة لأشدّك الى حافة هذه الوهدة.

مرتيوس : وأنا لم يعد لي من قوة للصعود بدون معونتك.

كنتوس : مرة ثانية أقول لك : أعطني يدك. فلن أفلتها إلا عندما تصبح فوق إلى جانبي. واذا لم تتمكن من المجيء إليّ، فأنا آتي اليك. (يرتمي إلى النفق).

(يدخل ساترنينوس وهارون).

ساترنينوس : تعال معي، لأرى ما هذه الهاوية، ومن الذي سقط فيها. تكلم يا من وقعتَ في هذه الهوّة الفاغرة فاها في بطن الأرض لتبتلعنا.

مرتيوس : أأنا التعيس ابن اندرونيكوس الذي قادتني شقاوتي إلى هنا لأشاهد أخاك بسيانوس جثة هامدة؟

ساترنينوس : أخي ميت؟ طبعاً أنت تمزح. لأنه مع زوجته في قصرهما شمالي هذه الغابة البديعة. ولم تمضِ ساعة على مغادرتي اياهما.

مرتيوس : أنا لا أعلم أين تركته حياً. انما يا للأسف وجدناه هنا قد فارق الحياة.

(تدخل تامورا ثم يدخل تيطس واندرونيكوس ولوسيوس).

تامورا : أين مولاي الملك؟

ساترنينوس : أنا هنا يا تامورا. لكن الأسى يعصر قلبي عصراً.

تامورا : أين أخوك بسيانوس؟

ساترنينوس : أنت تفتحين جرحي حتى أعماقه. بسيانوس المسكين صريع يرقد ها هنا.

تامورا : أنا آتيك متأخرة جداً بهذه الرسالة. ان الخطة المأسوية المشؤومة جعلتك تتعجب غاية التعجب من أن وجهاً انسانياً يقوى على التبطّن بمثل هذه الابتسامة الوحشية القاتلة.

ساترنينوس (يقرأ الرسالة التي سلمته اياها تامورا) : اذا لم ننجح في الاتصال بك، أيها الصياد العزيز، ونحن نكلمك عن بسيانوس تولَّ حفر قبره تحت الأشجار بقرب الصخرة التي تحت

واذا لم يسعفكِ ما بقي لك من ذراعيك، اضربي على طاولة الكتابة.

ديمتريوس (لشيرون) : انظر كيف يمكنها أن تقوم ببعض الحركات والاشارات.

شيرون : عُدْ واطلب ماءً معطراً لغسل يديك.

ديمتريوس : لم يعد لها من لسان لتطلب ولا يدين لتغسل. لذا لا خوف من أن ندعها تقوم بنزهات صامتة.

شيرون : لو كان هذا حالي لكنت شنقت نفسي.

ديمتريوس : لو كان لك يدان لعملت أنا على ربط عنقك بحبل المشنقة.

مرقس : مَن هنا؟ هل ابنة أخي تهرب؟ يا ابنة أخي، أريد أن أقول لكِ كلمة. أين زوجك؟ لو كنت حالماً لما تمنيت إلا أن أظل مستيقظاً. وان كنت مستيقظاً لتمنّيت أن يرميني أحد الكواكب أرضاً وان يجعلني أرقد إلى الأبد. تكلمي يا ابنة أخي اللطيفة. من هي اليد الشريرة الشرسة التي شوهتك وقطعت أطرافك؟ من هي اليد التي حرمت جسمك من يديك، ومَن حرمك من الذراعين اللذين يهفو الملك إلى النوم مطوقاً بهما ليحظى بسعادة لا تفوقها سعادة متمتعاً بفيض حبك؟ لماذا لا تجيبينني؟ وأسفاه أرى سيلاً من الدم مثل ينبوع تتلاعب به الرياح العاتية يترقرق من بين شفتيك المخضبتين حسب تنفّسك

العاطر شهيقاً وزفيراً. لا بد من أن يكون أحط الظالمين، قد أروى ظمأه من كنوزك، وليمنعك من التشهير به قطع لسانك. ما لك تشيحين بوجهك من شدة الخجل؟ لا بد لهذا الدم النازف من جراحك الثلاثة وخدّيك المحمرّين بسبب هذه المحنة القاسية، من الانتقام لهما. هل تريدين أن أتولّى أنا هذا الأمر؟ ماذا تقولين؟ ليتني أدرك ما يدور في رأسك، ليتني أعرف الجاني اللئيم لأناقشه الحساب وأصبّ عليه جام غضبي بحسرة وأسف. فالحسناء فيلومال قد فقدت لسانها، لكنها تمكنت من تسطير أفكارها على النسيج الذي كانت تزركشه. أما أنت يا ابنة أخي الحبيبة فلا سبيل لك الى التعبير عن ارادتك. لا بد من أن تكوني صادفتِ طاغيةً داهية في التنكيل قطع أناملك الناعمة التي كانت حقّقت زركشة أروع مما قامت به فيلومال. ليتك تستطيعين التعبير عن أفكارك. سحقاً للشقي الذي جنى عليك وحرمك من هذه الأنامل التي كانت بارعة في الزركشة وفي العزف على الأوتار الشجية كأنها تداعب نياط القلب الرقيق وتحرك فيه كوامن الحيوية والطرب. ليته سمع ما كان يجود به لسانك من ألفاظ رخيمة عذبة كأناشيد السماء. لما كان أعمل سكينه في أوصالك ولسانك تقطيعاً هكذا فظيعاً بربرياً، بل جثا عند قدميك مذهولاً كما فعل

بل على هذين الولدين، أيها النواب، وترونني أعفّر جبيني
وأسكب دموع الأسى ونفسي حزينة حتى الموت على
الدم المهدور الذي نزف من جراح القتيل المغدور ظلماً
وعدواناً. بينما دم ولديّ يصرخ لإتّقاء الوقوع في بلية
أدهى، إن أنتم سمحتم باعدامهما وتلويث سمعة أبيهما.

(يخرج الموكب).

تيطس (وحده يتابع كلامه) : أيتها الأرض، سأروي ترابك بدموعي المسنّة
أكثر مما يبذله هذان الشابان، كما يسقي نيسان بزخّات
مطره الأرض العطشى الى غيث الربيع كمؤونة واقية
من جفاف الصيف. سأسقي أرضك بدموعي السخيّة
حتى عندما يذوب ثلج الشتاء ويفيض ينابيع غزيرة على
الأرض أثناء فصل الربيع، اذا رفضتْ أن تشرب دم أبنائي
الأعزاء. (يدخل لوسيوس مشهراً سيفه). أيها النـواب
المحترمون، أيها الشيوخ الأجلاّء، فكّوا قيود ابنيّ، والغوا
حكم الاعدام، ودعوني أعلن أنا الذي لم أذرف دمعة
حتى الآن، ان دموعي اليوم تنطق بأفصح البلاغة.

لوسيوس : يا والدنا النبيل، أنت تنتحب سدىً لأن النواب لا ينصتون
إليك، وليس هنا في الواقع من أحد، فلا تشكُ آلامك
للصخر الأصمّ.

تيطس : دعني يا لوسيوس أتوسط لأخويك. أيها النواب الأفاضل، استحلفكم مرة أخرى باعزّ ما لديكم أن ترقوا لحالي.

لوسيوس : مولاي الكريم، ليس من نواب يستمعون إلى صوتك، فهؤلاء هم أصنام.

تيطس : هذا لا يهمّ يا عزيزي، وإن سمعوني فلن ينتبهوا إلى ما أقول. أجل، وإن دروا بما بي، فلن يشفقوا عليّ. لذلك أشكو أحزاني العاجزة للصخور. فاذا لم تحنَّ على شقائي، فهي على الأقل أفضل من النواب لأنها لا تقاطعني حين أتكلم. وما دمت أنتحب فهي تتقبّل دموعي الوضيعة ويخيّل إليّ انها تنوح معي. أما اذا كانت مغطّاة بالأنسجة، فلن يضاهيها أحد من هؤلاء النواب. فالحجر ليّن كالشمع، اذا قورن بقلوب النواب المقدودة من الصخر الأصمّ، وهو لا يؤذي. أما النواب فبكلمة يحكمون زوراً على الناس بالموت الزؤام. لكن لماذا تقف هكذا وسيفك مسلول؟

لوسيوس : لكي أنقذ أخويّ الأثنين من الموت. ولقاء هذه المحاول أصدر عليّ القضاة حكمهم بالنفي المؤبَّد.

تيطس : يا لك من رجل سعيد، شاؤوا أن ينعموا عليك. لكن كيف، يا لوسيوس الغبي، لا ترى ان روما، التي أضحت مسرح النمور الباحثة عن فريسة، لا طريدة أمامها سو أنا وذويّ. فما أسعدك في منفاك وفي بُعْدك عن د

زوجك قتل هو أيضاً وبسبب موته حُكم على أخويك بالاعدام، وقد نُفّذ فيهما الحكم. أنظر اليها يا أخي مرقس، انظر اليها يا ابني لوسيوس. عندما ذكرت أخويها سالت دموع جديدة على وجنتيها مثل الندى على زنبقة قُطفت وأوشكت أن تذوي.

مرقس : ربما هي تبكي لأن زوجها قُتل، وربما لأنها تعرف أن المتّهمَيْن بريئان.

تيطس : اذا كان المجرمان فعلاً قتلا زوجها، عليها أن تفرح لأن القانون عاقبهما. كلا، ثم كلا. هما لم يقترفا جرماً كهذا قبيحاً، والبرهان ما تعانيه أختهما من آلام. عزيزتي لافينيا، دعيني أقبّل وجنتيك، وقولي لي بالاشارة كيف يسعني أن أعزّيك. هل تريدين أن نجلس أنا وعمك الشهم وأخوك لوسيوس بقرب الينبوع، وأنت محدّقة تنظرين إلى خدودنا الذابلة التي باتت كالبرّية الرطبة الموحلة بعد انحساب مياه الفيضان عنها. دعونا نظل بجوار الينبوع النقي حتى يفقد عذوبته ويتحوّل إلى ماء مالح مرّ كدموعنا. هل تريدين أن نبتر أيدينا مثلك؟ أو أن نقطع ألسنتنا بأسناننا، وأن نقضي باقي عمرنا في شناعة الحركات المعبّرة الخرساء؟ ماذا تريدين أن نفعل نحن الذين نملك السنةً؟ تعالوا نرسم خطة شقاء مرهق يفضي إلى الذهول في مستقبل الأيام.

لوسيوس : والدي العزيز، كفّ عن النحيب لأن آلامك تحمل شقيقتنا التعيسة على البكاء والعويل.

مرقس : صبراً، يا ابنة أخي. وأنت يا تيطس الكريم، جفّف دموعك.

(يمسح عيني أخيه بمنديله).

تيطس : مرقس، يا مرقس، أنا أعلم جيداً، يا أخي، ان منديلك لم يعد يجفّف نقطة واحدة من دموعي، لأن حزنك غمرني بالكآبة الدائمة.

لوسيوس : أنا أريد أن أمسح وجنتيك يا لافينيا.

تيطس : اسمع، يا مرقس، أنا أفهم اشاراتها. فلو كان لها لسان يتكلم لقالت الآن للوسيوس ما قلته لك في هذه اللحظة بالذات. فدموعها السخية وخدودها الشاحبة لا سبيل إلى مسحهما بمنديل مشبع بدموع أخيها. ما أقسى هذه اللهفة والأسى؟ هي بعيدة عن رحاب الجنّة لا تقبل العزاء من دار الشقاء. (يدخل هارون).

هارون : يا تيطس اندرونيكوس، مولاي الأمبراطور ارسل يقول لك : اذا كنت تحبّ إبنيك، فواحد منكم، أنت أو مرقس أو لوسيوس، ما عليه إلا أن يبتر يده ويبعث بها إلى جلالته، وهو بدوره يرسل لك ولديك حيّين. وهذه تكون فدية جريمتهما.

الأتقياء أن يطلبوا الإنعام. وهارون يريد أن يكون سواد نفسه كسواد وجهه. (يخرج).

تيطس (يركع): أنا أرفع نحو السماء هذه اليد الوحيدة واحني هذا الجسم المهموم حتى الأرض. وان كان هناك رفق بالدموع البائسة فهو ما أنشده (للافينيا التي تركع بقربه) : ماذا أرى؟ أتريدين أن تركعي معي؟ لا تتأخري اذاً يا ابنتي العزيزة. لأن السماء تستجيب تضرعكِ، أو نقلب بتنهداتنا صفاء الفلك إلى ظلام، ونحجب الشمس وراء ضباب يحاكي الغيوم الدكناء.

مرقس : تكلم برصانة يا أخي ولا تزج نفسك في هاوية القنوط.

تيطس : أوليس شقائي هوّة سحيقة لا قرار لها؟ لا بد لآلامي اذاً من أن تكون مثلها بلا قرار.

مرقس : يجب عليك أن تحكّم عقلك وتضبط حزنك.

تيطس : لو كان العقل يسيطر على هذه المواقف لملكت نفسي ووضعت حداً لعذابي. عندما تهطل دموع السماء، ألا ترى كيف تغرق الأرض في بحر الأحزان. واذا عصفت الرياح الهوجاء، إلا تتلاطم الأمواج وتعلو كالجبال، وتهدّد أديم السماء بما يعكر صفوها ويدعها ترغي وتزبد؟ بعد كل هذا، تتعجب إن لم يلازم التعقل هذا النواح والنحيب؟ (يشير إلى لافينيا) أنا المحيط، واسمع تنهدات ابنتي، وهي السماء بدموعها الهاطلة على الأرض، ولا

بد لأمواجي من أن تحركها الحسرات، ولا بد لأرضي من أن يغمرها الفيضان ويغرقها الطوفان بدموعها المتواصلة. لأن أحشائي لا تقوى على امتصاص هذه العذابات، وعليّ أن أتقيأها واستفرغها نظير الرجل السكران. دعني اذاً، لأن من يخسر هو دائماً حرٌ في معالجة قلبه بأقوال أمرّ وأقسى من بلواه.

(يدخل رسول وهو حامل رأسين ويداً مقطوعة).

الرسول : يا اندرونيكسوس الكريم، أنت مظلوم، ولم تقدّر تضحياتك التي قدّمتها في سبيل الامبراطور. هذان رأسا ولديك النبيلين وهذه يدك تعاد جميعها إليك بسخرية وازدراء. هم يهزأون بآلامك ويتندّرون بشجاعتك وبذكريات موت والدي. (يخرج).

مرقس : الآن، والبركان إثنا قد برد في جزيرة صقلّية، وقلبي يتقلّى في نار الجحيم الدائمة الاشتعال، ها هي أكثر من مصيبة يمكن تحملها. البكاء مع المنتحبين يغزي قليلاً، انما الأسى المتغاضى عنه هو موت مضاعف.

لوسيوس : هل يتسنى لهذا المشهد أن يسبب جرحاً هكذا عميقاً، بدون أن يهزّ أركان حياة محتقرة ويهدمها؟ هل يتسنى للحياة أن تظل حاملة اسمها عندما لا يبقى منها سوى نفس ضئيل؟ (تعانقه لافينيا).

مرقس : وا أسفاه. مسكين هذا القلب. هذه القبلة ليست تعزية له أكثر من الماء المجلد بالنسبة إلى أفعى جائعة.

تيطس : متى ينتهي هذا النوم المريع؟

مرقس : الآن، وداعاً أيها السراب الخدّاع. مت يا اندرونيكوس، أنت لا تنام. أنظر إلى رأسَيْ ولدَيْك وإلى يدك المقطوعة. وأنظر إلى ابنك الآخر المبعد وقد سبّب له الشحوب هذا المشهد الأليم المفجع، وأنا أيضاً أخوك وقد أصبحت كتمثال من حجر بارد جامد. أنا لا أريد تخفيف آلامك. انتف شعرك الذي وخطه الشيب وعضّ يدك الثانية بأسنانك. وليغمض هذا المنظر الفظيع عيونك المقرّحة. حان وقت افلاتك من وثاقك، فلماذا تظل هادئاً؟

تيطس (يضحك) : ها ها ها.

مرقس : لماذا تضحك؟ هذا في غير أوانه.

تيطس : لأني لم أعد أملك دمعة واحدة أسكبها. ثم هذا اليأس عدو يريد التحكّم بعينيّ اللتين بلّلهما وأعماهما سيل الدموع. فكيف أجد طريقي إلى بركان الانتقام؟ لأن هذين الرأسين يبدوان كأنهما يكلّماني ويفهمان اني لن أذوق طعم السعادة إلا اذا رددت كيد اخصامي إلى نحرهم. هيا، هيا قولوا لي، ماذا يتحتّم عليّ أن أفعل. أنتم أيها التعساء تحلّقوا حولي لكي استطيع أن ألتفت إلى كل واحد منكم وأقسم لنفسي اني سأنتقم لاهاناتكم.

لقد أعلنت حلفاني: هيا يا أخي تناول أحد الرأسين وبيدي
هذه سأحمل الرأس الآخر. وأنت يا لافينيا سيكون لك
دور أيضاً. احملي يدي يا ابنتي العزيزة بين أسنانك.
أما أنت يا ولدي فاغرب عن وجهي، أنت منفيّ وعليك
أن لا تمكث هنا. اسرع إلى القوط واجمع منهم جيشاً،
اذا كنت حقاً تحبني كما أعتقد. تعال نتعانق ونفترق،
لأن لدينا أعمالاً كثيرة.

(يخرج تيطس ومرقس ومعهما لافينيا).

لوسيوس (وحده) : الوداع يا أبي النبيل اندرونيكوس، يا أتعس رجل
عاش في روما. وداعاً يا روما الرائعة، إلى أن أعود
أنا لوسيوس اليك، فإني أترك ها هنا رهائن أعزاء على
قلبي كحياتي. وداعاً يا أختي العزيزة لافينيا، أنت التي
لم تعودي كما كنت سابقاً. لكني أنا لوسيوس وأنت
يا لافينيا لن نعيش إلّا في زوايا النسيان وفي قبضة أفظع
الآلام والأحزان. فان أنا بقيت حياً سأثور لما اصابك
من اهانة ومذلة وسأحمل ساترنينوس وامبراطورته على
طلب الرحمة أمام أبواب روما كما فعل ترقان وملكته.
ها أنا الآن ذاهب إلى القوط وسأجند منهم قوّات هائلة
لمعاقبة روما وساترنينوس. (يخرج).

المشهد الثاني

في قاعة مائدة بيت تيطس أمام أطعمة مختلفة

(يدخل تيطس ولافينيا ولوسيوس الشاب ابن لوسيوس المتقدم في السن).

تيطس : والآن، لنجلس ونأكل فقط ما نحتاج إليه للمحافظة على قوانا بغية الانتقام لكوارثنا المريرة. وأنت يا مرقس فكَّ هذه العقدة التي أحدثها اليأس. فأنا وابنة أخيك المسكينة لم يعد لنا من أيد ولا سبيل لنا إلى العزاء ما دمنا متقاعسين لا نأتي بأية حركة. أنا لم يبق لي سوى هذه اليد اليمنى التي تعذبني عندما أقرع صدري وحين يخفق قلبي جنوناً بسبب محنتي وهو حبيس بين حنايا ضلوعي ولا حول لي إلا لتصبيره وكتم شكواه. (يقرع صدره. يقول للافينيا) : وأنت يا مستودع الحزن والشقاء، لا تستطيعين التعبير إلا بحركات مبهمة غير مفهومة عندما تضيق بك الدنيا ويغلب عليك الأسى أقرعي أنت أيضاً صدرك لتهدئة قلبك المكلوم، ونفّسي عنه بتنهداتك لتسكين أوجاعه. وإلّا خذي سكّيناً بين

أسنانك وأغرسيه في قلبك هذا حتى تنسكب كل دموعك السخية النابعة من مآقيك في هذه المحنة القاسية لعلها تبرّده وتغرقه في فيض هذه المرارة الجنونية المتدفقة من عينيك.

مرقس : تبًّا لك، يا أخي. لا تعلّمها هذا العنف نحو ذاتها لئلاّ تلحق الأذى بحياتها.

تيطس : ماذا تقول؟ هل أفقدك الشقاء صوابك؟ يا مرقس، لا أحد غيري يمكنه أن يتصرّف بجنون. بأية يد شرسة يسعها أن تضرّ بنفسها؟ لماذا ترشقنا بكلماتك الجارحة ولا تكفّ عن ذكر اليد التي تثير في أعماقنا أمرّ الذكريات؟ بالله عليك لا تكرّر ذكرها ولا تتكلم عن الأيدي خشية أن تذكّرنا بأننا فقدناها. سحقاً لي. ما هذا الكلام الذي يرهقنا بتذكيرنا اننا فقدنا أيدينا، بينما مرقس لا يكفّ عن ذكر هذه الأيدي. هيا بنا إلى المائدة. وأنت أيتها الفتاة الحلوة، كُلي هذا، إذْ لم يعد لدينا ما نشربه. اسمع يا مرقس ما تقوله فأنا أستطيع أن أفسّر كل ما تريد أن تعبّر عنه في استشهادها. هي تقول انها لا تقوى على شرب أي سائل ما عدا دموعها التي تمتزج بآلامها وتنهمر على خديها. فهي شاكية خرساء. سأدرس فكرتك وسأتمرن على فهم حركاتك الصامتة التي يستجديها النساك في صوامعهم أثناء

تضرعاتهم. لن تتنهدي ولن ترفعي بقايا ذراعيك إلى السماء، ولن تغمزي القبة الزرقاء بطرف عينيك، ولن تشيري اليها بهزّ رأسك ولا بطيّ ركبتك ركوعاً للدلالة على الخضوع. لا، لا، لن أحاول أن أفهم ما يجول في خاطرك حتى ولا بالاشارة.

لوسيوس الشاب (والدموع تملأ عينيه) : حسناً يا جدّي. دع عنك هذا النحيب المرير، وسلّ عمتي ببعض القصص المرحة.

مرقس : وا أسفاه يا ولدي الحنون. أراك دامع العين وأنت تنظر إلى آلام جدك الحزين.

تيطس : هدّىء روعك، يا بني. لا أرى في عينيك سوى الدموع. وأخشى أن يذوب قلبك سريعاً من شدة الأسى. (يضرب مرقس صحنه بسكينه) لماذا تضرب صحنك بسكينك، يا مرقس؟

مرقس : لقد قتلت كائناً حياً، يا جدّي. قتلت ذبابة.

تيطس : الويل لك يا قاتل. أنت تطعن هكذا قلبي. فان عينيّ تعبتا من رؤية الظلم والطغيان. فتسبيب الموت لأحد الأبرياء لا يليق بشقيق تيطس. إذهب لأني لا أجد لك مكاناً بصحبتي.

مرقس : وا أسفاه، يا مولاي. أنا لم أقتل سوى ذبابة.

تيطس : لو كان لهذه الذبابة أب وأمّ، كم كانا ينشران شكواهما

حيث حملتهما أجنحتهما الذهبية، ويملآن الأجواء بطنينهما وندبهما. مسكينة هذه الذبابة المسالمة التي جاءت إلينا لتبهج أوقاتنا بهينمتها الرقيقة، فما كان منك إلا أن قضيت عليها.

مرقس : سامحني يا مولاي. كانت هذه الذبابة سوداء اللون تشبه بربري الأمبراطورة، ولذلك قتلتها.

تيطس : اذاً، سامحني لأني لمتك على هذا العمل الخيّر. ناولني سكّينك لأنفّس عن غيظي، وأنا أتصور أن هذا البربري قد قدم إلى هنا لتسميمي. هذا لك، هذا لتامورا. يا لك من خبيث. على كل حال لا أظننا قد تدنّينا إلى هذا الدرك المنحط حتى نتعاون كلانا على قتل ذبابة صغيرة تذكّرنا بالبربري الفاحم السواد.

مرقس (على حدة) : آسف لهذا الرجل المسكين. فقد أفقده الألم صوابه، وراح يتصوّر أموراً لا وجود لها إلا في خياله، ولا تمتّ إلى الواقع بأية صلة.

تيطس : هيا ارفعوا السفرة. يا لافينيا، تعالي معا. أنا ذاهب إلى غرفتي لأقرأ معك قليلاً بعض قصص الماضي الكئيب. تعالي يا ابنتي، تعالي معي. أنت نظرك لا يزال فتيًّا، ويمكنك أن تقرإي بلا كلل حين يدرك الارهاق عيوني.

(يخرجون).

الفصل الرابع

المشهد الأول

أمام منزل تيطس

(يدخل تيطس ومرقس، ثم لوسيوس الشاب فتجري وراءه لافينيا.
يهرب الفتى وتحت إبطه كتبه التي يدعها تتساقط على الأرض).

لوسيوس الشاب : النجدة، يا جدي، النجدة. فان عمتي لافينيا تلاحقني
في كل مكان، ولا أدري لماذا. يا عمي الكريم مرقس،
أنظر كيف تأتي مسرعة. وا أسفاه لا أدري يا عمتي
العزيزة، ماذا تريدين مني.

مرقس : ابقَ إلى جانبي ولا تخف من عمتك.

تيطس : هي تحبك كثيراً يا ولدي، ولا تريد أذاك.

لوسيوس الشاب : أجل، عندما كان والدي في روما، كانت هي تحبني
كثيراً.

مرقس : ماذا تقصد ابنة أخي لافينيا بهذه الحركات؟

تيطس : لا تخف منها، يا لوسيوس. هي تريد طبعاً أن تقول

شيئاً. أنظر يا لوسيوس، أنظر كيف تدلّلك. هي تريد أن ترافقها إلى مكان ما. يا ولدي، لم تجتهد كورنيليا في تثقيف أولادها أكثر ممّا فعلت لافينيا لتعلمك أشعار القصيدة الرائعة « الخطيب » من نظْم شيشرون، ألا تحزر لماذا تضمك هكذا إلى صدرها؟

لوسيوس الشاب : انا لا أذكر شيئاً يا مولاي، ولا يسعني أن أحزر إلا اذا كان تصرفها نوعاً من الهذيان الذي استولى عليها. في الواقع سمعت مراراً من جدّي ان شدة الحزن تؤدّي الى الجنون. ولقد قرأت ان هيكوب الطروادية قد أفقدها الحزن صوابها. وهذا ما أفزعني، وإن كنت أعلم، يا سيدي، ان عمتي النبيلة تحبني أكثر من أمي بما لا يقاس، وأنها لا تريد أن تقلق حداثتي إلا اذا داهمها ضرب من الهوس. وهذه الفكرة بالذات هي التي جعلتني اطرح كتبي جانباً وأهرب، ربما بدون سبب يستدعي ذلك. لكن سامحيني يا عمتي العزيزة. أجل يا سيدتي، اذا شاء عمي مرقس أن يذهب فأنا مستعد أن ألحق بك راضياً.

مرقس : انا أريد يا لوسيوس

(تعيد لافينيا إلى لوسيوس كتبه التي تركها تسقط على الأرض

تيطس : ما رأيك يا لافينيا؟ ماذا يعني هذا يا مرقس؟ هناك بعض

كتب تريد أن تراها. أي منها، يا ابنتي؟ افتحيها يا عزيزتي، فأنت مثقفة ومنوّرة أكثر من سواك. تعالي واختاري من كل مكتبتي ما يعجبك وانسي عذابك إلى أن تكشف السماء عن اللعين الذي سبّب كل هذه المصائب. أي كتاب تريدين؟ لماذا ترفع ساعديها الواحد تلو الآخر؟

مرقس : اظن انها تريد أن تقول أن هناك أكثر من مجرم. نعم، أكثر من واحد. أو أنها ترفع ساعديها لتلتمس من السماء الأخذ بالثأر.

تيطس : ما هذا الكتاب الذي تحركه هكذا، يا لوسيوس؟

لوسيوس الشاب : هو، يا جدّي، كتاب « التحوّلات » تأليف أوفيريوس الذي أهدتني اياه والدتي.

مرقس : هل اختارت هذا المجلد بالذات من بين عدد كبير من أمثاله، إحياءً لذكرى الفقيدة؟

تيطس : مهلاً، أنظر كيف تقلّب صفحاته بعجلة. تعال نساعدها. ماذا تريد أن ترى؟ هل قرأت اسم لافينيا؟ هذه مأساة فيلومال التي تروي خيانة رجل جبان مغتصب. وأنا أخاف أن يكون الاغتصاب علة مصابها.

مرقس : أنظرْ، يا أخي، أنظرْ، ولاحظْ كيف تتأمل الصفحات.

تيطس : يا ابنتي الحبيبة لافينيا، هل فاجأك الجاني واغتصبك وأذلّك، كما جرى لفيلومال التي اعتُدي عليها في أعماق

الغابة بشراسة وحشية. أجل، أجل. هناك مكان يشابه المكان الذي اصطدنا فيه. وقانا الآلهة مغريات الصيد. نعم هو شبيه بالمكان الذي يصفه الشاعر هنا، كأن الطبيعة أعدّته ليكون مسرحاً للاغتصاب والاغتيال.

مرقس : لماذا نلصق بالطبيعة تهمة فظيعة كهذه، ولا نفترض ان الآلهة سَرّها أن تشهد مثل هذه المأساة؟

تيطس : أجيبينا بإشارة يا ابنتي العزيزة. فبيننا ليس سوى الأصدقاء. من هو المولى الروماني الذي جَسُر على ارتكاب هذا المنكر؟ هل تخلّى ساترنينوس عن مسؤوليته كما فعل ترقان في الماضي وقد غادر مخيّمه ليدنّس سرير لوكريس؟

مرقس : اجلسي بجانبي يا ابنة أخي الحلوة. وأنت أيضاً يا أخي، وأنتم يا أبولون وبالاس والمشتري وعطارد، ألهموني لأكتشف مرتكب هذه الخيانة الدنيئة. انظر الى هنا، يا مولاي. تطلّعي الى هنا يا لافينيا. (يكتب اسمه على الرمل بعصى يوجّهها برجليه وبفمه) هذه الأرض المرملة مسطّحة. وجهي اذا استطعت هذه العصا نظيري أنا، واكتبي اسمي بدون الاستعانة بيديّ. اللعنة تحلّ بمن دفعنا إلى اجراء هذه التجربة. اكتبي يا ابنة أخي العزيزة، واعلمينا أخيراً في هذا المكان، بما تشاء السماء أن تظهره لمعاقبة الجاني. ساعدتك السماء على كشف السر بكتابة ما

لا يسعك أن تبوحي به من شقائك لنعرف الخائن المجرم ونطّلع على حقيقة الأمر.

(لافينيا تأخذ العصا بين أسنانها وتكتب، وهي توجّه القضيب ببقايا ساعديها المبتورين، اسمَيْ شيرون وديمتريوس).

مرقس : ماذا كتبتِ؟ هذان هما ابنا تامورا اللذان أعمتهما الشهوة وسيطر عليهما المجون فأتيا هذه الفعلة الشنيعة الخسيسة.

تيطس : يا إله السماء القوي، أيقتضي لك كل هذا الوقت الطويل لتسمع وتبصر هذه الجرائم البشعة.

مرقس : هدّئ روعك يا مولاي. أنا أعترف بأن ما كُتب على الأرض يكفي لاثارة الأرواح المسالمة واغضاب قلوب الأولاد البريئة. إركع معي يا مولاي واركعي يا لافينيا، وأنت أيضاً يا ولدي الحبيب؟ أنت يا أمل هكتور الروماني. اركعوا واقسموا معي كما فعل بعد اغتصاب لوكريس، السيد يونيوس بروتوس بالزوج التعيس وبوالد هذه المرأة الفاضلة التي دنّس شرفها. اقسموا معي على ملاحقة هؤلاء القوط المعتدين، والانتقام منهم بإراقة دمائهم، وإلا هلكنا جميعاً إذا لم نغسل عارنا.

تيطس : لا بد من الانتقام، وعلينا أن نعرف كيف، مهما كان الجرح الذي أحدثناه في الدبّ الصغير طفيفاً، علينا أن نكون على حذر لأن أمّه دائماً بالمرصاد. واذا شمّت

رائحتكم، اعلموا جيداً انها تنقلب إلى لبوءة مفترسة، فهي تؤرجح صغيرها حين تكون مستلقية على ظهرها. لكنها حالما يغفو باستطاعتها أن تتصرف كما تشاء. أنت صيّاد حديث العهد يا مرقس، فدعني أتصرف، وتعال نبحث معاً عن صفيحة من نحاس لها زاوية حادة كالفولاذ، لأكتب عليها هذه الكلمات واحفظها على سبيل الاحتياط. (يريه الكلمات التي كتبتها لافينيا) رياح شمالية هوجاء ستبدّد هذه الرمال نظير أوراق العرّافة، فأين تكون امثولتك حينذاك؟ ماذا تقول يا ولدي.

لوسيوس الشاب : أقول يا سيدي اني لو كنت رجلاً، لما تركت مخدع أمٍّ هؤلاء الصعاليك الجبناء في أمان بل أخضعتها معهم كالخونة لنير روما.

مرقس : أجل، هذا ولد يليق بذويه. فأبوك تصرّف مراراً باخلاص حيال وطنه العقوق.

لوسيوس الشاب : سأتصرف هكذا يا جدي، إن أمدّت السماء في عمري.

تيطس : هيا، تعال معي إلى قاعة الأسلحة. سأدجّجك بالسلاح يا لوسيوس. ثم سأحملك أنا بنفسي يا ولدي الى أبناء الامبراطورة، وأقدمهم لك غنيمة باردة. تعال، تعال. ستنفّذ وعدك ووعيدك يا ولدي. أليس كذلك؟

لوسيوس الشاب : أجل، وبخنجري هذا الذي سأغرسه في صدورهم، يا جدي.

تيطس : كلا، يا ولدي. سأعلّمك طريقة أخرى للوصول إلى مبتغاك. تعال يا لافينيا. وأنت يا مرقس، احرس البيت. فأنا ولوسيوس سنذهب إلى البلاط لنصنع المعجزات. أجل وحق السماء يا مولاي، سنصطحب معنا موكباً طويلاً.

(يخرج تيطس ولافينيا والشاب لوسيوس).

مرقس : أيتها السماء، هل يسعك أن تستمعي إلى رجل كريم يتنهد، ولا تعطفي عليه، ولا ترحمي شقاءه؟ اذهب يا مرقس، اتبعه في هذيانه هو الذي يحمل في قلبه من الجراح أكثر مما يعذبه من ألم. كم وكم من آثار الطعنات يحمل درعه المحدودب الذي واجه به الأعداء بجرأة وإقدام، هو الشريف الذي لا يحقد ويأبى الانتقام. أتمنى أن تنتقم السماء عنه من العجوز اندرونيكوس.

(يخرج).

المشهد الثاني

في القصر

(يدخل من أحد الأبواب هارون وشيرون وديمتريوس، ومن باب آخر يدخل لوسيوس الشاب وأحد الخدم حاملاً مجموعة أسلحة محاطة بورقة عليها بعض الأشعار).

شيرون : هذا هو ابن ليوسيوس يا ديمتريوس، وهو يحمل إلينا رسالة.

هارون : وما هي الرسالة المشؤومة التي يأتينا بها من جده اللئيم؟

لوسيوس الشاب : يا سادتي، بكل تواضع أحمل إليكم تحيات اندرونيكوس. (على حدة). وأطلب من آلهة روما أن تمحقكما كليكما.

ديمتريوس : شكراً جزيلاً يا لوسيوس الكريم. ما وراءك من الأخبار؟

لوسيوس الشاب (على حدة): الخبر الهامّ هو أنكما معتبرين كشقيقين متهمين بالاغتصاب (بصوت عال). أفيدكما بأن جدّي الذي يريد مساعدتكما قد أرسل إليكما أجمل ما عنده من أسلحة لتبتهجا بها في شبابكما وأنتما أمل روما الزاهي. هذا ما أوصاني بأن أنقله إليكما من كلام، أقوله وأنا أقدّم هديته لسيادتكما كي تستعملاها عند الاقتضاء ولا تفتقرا إلى أية وسيلة للدفاع عن نفسيكما. والآن استأذنكما

بالانصراف. (على حدة). سحقاً لكما أيها القاتلان الفاسقان.

(يخرج الشاب لوسيوس والخادم).

ديمتريوس : ماذا أرى هنا؟ ورقة عليها كتابة. لنقرأها :
« الرجل البعيد عن الملامة، البريء من كل جرم، لا يحتاج إلى القوس والنبال ».

شيرون : هذه من أقوال هوراس التي أعرفها جيداً، لأني قرأتها في أحد الكتب منذ زمن بعيد.

هارون : أجل، هذه من أقوال هوراس. أنت على حق. (على حدة). هكذا تكون الحمير. لأن المسألة ليست مزاحاً. اكتشف الرجل جريمتهما وأرسل إليهما أسلحة ملفوفة بالحكم الذي جرحهما في صميم القلب من غير أن يدريا. لكن متى علمت الامبراطورة ستصفّق لفكرة اندرونيكوس. لندعها تأخذ قسطاً من الراحة على سريرها، وهي ساهرة لا يعرف النوم سبيلاً إلى أجفانها. (بصوت عال). يا سادة، أولا ترون أن حسن طالعنا قادنا إلى روما نحن الغرباء، وفوق ذلك نحن أسرى، لنرتقي إلى هذه الرفعة السامية. لقد شعرت بالغبطة وأنا أمام باب القصر أتحدّى النائب أمام أخيه بالذات.

ديمتريوس : وأنا ابتهجت أكثر منه لدى رؤية مولاي يتواضع ويتنازل الى ارسال هذه الهدايا.

هارون : أوليس له من عذر على تصرفه هذا يا مولاي ديمتريوس؟ أولم تعامل ابنته بكل مودة؟

ديمتريوس : تمنيت لو أن في روما ألف سيدة مستعدة لخدمتنا كما نريد.

شيرون : هذه أمنية طيّبة تدل على فيض من المحبة والاخلاص.

هارون : هنا لا ينقصنا إلا أمك لتقول آمين.

شيرون : وستردّدها أيضاً لعشرين ألف سيدة رومانية.

ديمتريوس : تعالوا نذهب ونتضرع إلى الآلهة لأجل والدتنا الحبيبة. فهي فريسة الآلام والأحزان.

هارون (على حدة) : الأَوْلى أن تصلّوا للابالسة، لأن الآلهة قد تخلّت عنكم من زمن طويل. (تصدح الموسيقى).

ديمتريوس : لماذا تنفتح أبواق الامبراطور هكذا؟

شيرون : بلا شك، ابتهاجاً بالمولود الجديد الذي رُزقه الامبراطور.

ديمتريوس : مهلاً. من الآتي هنا؟

(تدخل مرضع وهي تحمل طفلاً أسود اللون بين ذراعيها).

المرضع : صباح الخير يا سادتي. هل رأيتم البربري هارون.

هارون : نعم ولا، أو أبداً. أنا هارون، ماذا تريدين مني؟

المرضع : يا سيدي هارون، سنهلك كلنا إن لم تتدارك الأمر عاجلاً.

هارون : ما هذه الضجة التي تثيرينها هنا؟ ماذا تحملين بين ذراعيك؟ ما هذه الصرة؟

المرضع : ما أردت أن أخفيه عن عيون السماء، أعني عار امبراطورتنا وفضيحة روما الكبرى، وقد وُلدتْ يا مولاي، أجل وُلدتِ الآن.

هارون : ماذا تقولين؟

المرضع : أريد أن أقول انها وضعت منذ برهة.

هارون : اسأل الله أن يحفظها سالمة، وماذا أنجبت؟

المرضع : شيطاناً صغيراً.

هارون : فأصبحت هكذا أمّ الشيطان بل أمّ المسخ.

المرضع : أجل أمّ مسخ شقي بشع أسود مشؤوم. ها هوذا الطفل اللعين، الشبيه بالضفضع بين أجمل أطفال البلد. ارسلته لك الامبراطورة كبرهان ساطع على قباحتك، وهي تأمرك بأن تضع له علامة برأس خنجرك.

هارون : سحقاً لها من زانية. ألا ترى شناعة هذا اللون الكريه. يا له من طفل منحوس.

ديمتريوس : ماذا فعلت، أيها الجبان؟

هارون : ما لا تستطيع أن تنكره.

شيرون : لقد سببت الهلاك لوالدتنا.

هارون : بالعكس، أنا أنقذتُ والدتك أيها الغبي،

ديمتريوس : أبهذا تنقذها، يا أحطّ زبانية الجحيم. أهكذا أذللتها يا

وجه البوم؟ ملعون هذا الشيطان الأسود.

شيرون : لن تُكتب له الحياة.

هارون : بل سيظلّ حيًّا.

المرضع : هذا واجب يا هارون. هكذا تشاء والدته، ولن يتولّج أحد سواي نحرْ من أرضعته.

ديمتريوس : سيخترق خنجري قلب هذا الثعبان الذميم. اعطيني اياه أيتها المرضع. ها هي نصلتي منتضاة للاجهاز عليه.

هارون (يستل سيفه) : هذا السيف سيقطع أوصاله بأسرع من لمعان البرق (يأخذ الطفل من ذراعي المرضع). جمّدوا هذا الوحش الضاري. هل تريد أن تقتل أخاك؟ بحق كواكب السماء المنيرة، لا بد لي من الدفاع عن هذا الولد الرائع بحد سيفي. ومن يلمس هذا الملاك، أي ابني البكر ووريثي، موتاً يموت. اقسم لكم بأن لا أحد، حتى ولا تيوفون ولا السيد الكبير ولا إله الحرب، يقوى على أخذ هذا الولد من يد أبيه. هيا أيها السفاح الشاب، أيها الذئب الغدار، يا عنوان العربدة والهرج، اعلم ان الجِلْد الأشد سواداً هو أنصع بياضاً من جميع الأولاد الآخرين. واعلم أيضاً أن مياه البحر بأجمعها لا تستطيع أن تبيّض جناح أوزة حقيرة. بلّغ الامبراطورة من قبلي اني في عمر يسمح لي بالدفاع عما يخصّني، ولتعتبر كلامي هذا كما يحلو لها.

ديمتريوس : أتريد هكذا أن تخون سيدتك النبيلة؟

هارون : مولاتي هي مولاتي. وهذا الولد يخصني أنا. هو صورة شبابي وطيشه، أفضّله على كل أولاد الدنيا، وسأصون حياته رغماً عن أنف الجميع وكثيرون في روما سيغارون منه ويحسدونه.

ديمتريوس : هذا الولد لطّخ شرف أمّنا بعار لا يمْحى.

شيرون : ستلومها روما على هذه الفعلة السوداء.

المرضع : لقد حكم الامبراطور عليها بالاعدام من شدة غيظه وغضبه.

شيرون : وأنا أخجل من حماقتها هذه الخسيسة.

هارون : أجل، هذه نتيجة تغنيجك اياها ومسايرة دلالها. تبًّا لهذا السواد المشؤوم الذي يفضح أسرار القلب المخزية. وسحقاً لهذا الشاهد اللعين الذي يتبسم لأبيه الأسود كأنه يقول له : أنا صنيعتك أيها العجوز المتصابي. هو أخوك يا مولاي من لحم ودم من منحتك الحياة، ولدته من البطن الذي أنجبك. أجل هو أخوك، ولا مجال للشك في السمة المطبوعة على محياه.

المرضع : ماذا تريد أن تقول للأمبراطورة، يا هارون؟

ديمتريوس : قرر، يا هارون، ما يجب أن تفعله، ونحن نناصر فكرتك، انقذ الولد، اللّهمّ اذا نجونا نحن أيضاً.

هارون : هيا نجلس ونتشاور معاً. أنا وابني نضع مصيرنا بين

يديك. لنمكث هنا ولنبحث عن وسيلة لخلاصنا جميعاً.

ديمتريوس : كم امرأة شاهدت هذا الطفل؟

هارون : عافاكم الله أيها السادة. عندما نكون جميعنا متّحدين ومتفقين، ترونني كالحمل الوديع. لكن اذا جابهتموني انا البربري، ستجدونني كالنمر الشرس وكأسد الغاب، وستلاقون المحيط العاصف أهدأ مني حين أغضب. هيا لمعالجة قضيتنا. كم من الأشخاص شاهدوا الطفل؟

المرضع : انا والقابلة القانونية كرنيليا طبعاً، والامبراطورة والدته.

هارون : انت والامبراطورة والقابلة فقط. اثنتان يسعهما حفظ السر في غياب الثالثة. اذهبي وقابلي الامبراطورة وأعيدي لها ما قلت. (يطعنها بخنجره). واك، واك. هكذا يصيح الخنزير عند ذبحه واعداده لِيُشْوَى.

ديمتريوس : ماذا تقصد يا هارون؟ لماذا تصرفت هكذا؟

هارون : يا سيدي، هذا عمل سياسي. هل عليها أن تعيش لتفضح غلطتي. هذه ثرثارة طويلة اللسان. كلا، ثم كلاّ، يا مولاي. والآن إطّلع على خطتي الكاملة. ليس بعيداً من هنا، يقطن ملاتيوس ابن بلدي. زوجته وضعت يوم أمس، وطفلهما يشبه هذه المرأة، لأنه أبيض مثلك، فاتفق أنت وأبوه واعطِ أمّه ذهباً واشرح لهما تفاصيل مشكلتك وكيف سيعيش ابنهما مرفّها ولأي مصير مرموق يُهيَّأ، اذ سيعامل كأنه وريث الامبراطور، عندما سيصبح كإبنه،

اذا استبدلناه بابني. أجل سيحنو عليه الامبراطور كولده الحقيقي. اتسمعونني يا سادتي؟ هل رأيتم كيف وجدنا الحلّ. (يشير إلى الرضيع) والآن عليكم أن تهتمّوا بدفن الطفل الأسود في التربة القريبة من هنا. فأنتم أناس ظرفاء. ثم أتدبّر أنا أمر القابلة القانونية التي يتحتّم عليها أن تختفي كما اختفت المرضع لمنعها من الثرثرة على هواها.

شيرون : اكراماً لما تكنّه من الاحترام والاعتبار لتامورا ولذويها الذين يقدّرون موقفك حيالهم.

(يخرج ديمتريوس وشيرون الذي يحمل الرضيع).

هارون : والآن هيا بنا نذهب إلى القوط بأسرع من طيران السنونو. هناك سأودع الكنز الذي أحمله وأئتمن أصدقاء الامبراطورة عليه بعد أن أكلمهم سراً عن طياشتها. فإلى الأمام، يا صاحب الشفاه الغليظة، سأحملك بعيداً عن هذا المكان، لأننا بسببك مضطرون إلى اللجوء إلى حيل كثيرة. سأطعمك ثماراً برّية وجذوراً وأسقيك قليلاً من اللبن الذي أستدرّه من العنزة، وأسكنك في كهف وسأدرّبك حتى تصبح من المحاربين الأشداء وأعدّك لتستلم قيادة معسكر بكامله. (يخرج)

المشهد الثالث

في مكان على مقربة من القصر

(يدخل تيطس ولوسيوس الشاب وغيرهما من السادة حاملين أقواساً. يحمل تيطس النبال وفي رؤوسها معلّقة شتى الكتابات).

تيطس : تعال يا مرقس، تعال. يا أبناء عمي، ها هو الطريق. يا سيدي ارنا مهارتك في رمي النبال. أحكم تصويبك فينطلق السهم رأساً كرمز الحق والعدالة. أجل تذكّر يا مرقس. لقد مضيت لأشتري ثم هربت. اشهروا يا سادتي أسلحتكم. وأنتم يا أبناء عمي، اذهبوا واستكشفوا المحيط والقوا شباككم بين طيات أمواجه. فلربما وجدتموها في قلب البحر. مع انها ليست هناك كما هي ليست على الأرض. كلاّ، يا بوبليوس ويا سمبرونيوس، عليكما أنتما أن تفعلا ذلك. عليكما أن تحفرا بالمعول والمجرفة، وأن تخترقا أعماق الأرض، وعندما تصلان إلى بلاد بلوتون، أرجوكما أن ترفعا إليه هذا الإلتماس، وقولا له انه يتوسّل إليه ان يمنحه العون والانصاف، وان هذا الالتماس صادر عن اندرونيكوس العجوز الذي ثقلت على منكبيه المصائب في روما العاقّة. أجل، روما ذاتها. انا جلبت لك الشقاء منذ أن حوّلت

إليك أصوات الشعب الذي يضطهدني هكذا لأجله. هيّا، اذهبوا وكونوا جميعكم يقظين، وابحثوا في جميع المراكب الحربية، لربما أنزل هذا الامبراطور اللعين اليها رجاله. فلا يمكننا بعد ذلك يا أولاد عمي أن نطالب بشيء، اذ نكون حينذاك كمن يغني في الطاحون.

مرقس : ألا تجد المسألة شاقة يا بوبليوس حين تسمع هذيان عمك أثناء تضعضع أفكاره؟

بوبليوس : لمن أوجب واجباتنا يا مولاي، أن نسهر بعناية على عمنا نهاراً وليلاً، نداري مزاجه بما أمكن من اللطف إلى أن يشفيه الوقت من علته ويصل إلى شاطئ السلامة.

مرقس : هذه العلة، يا أبناء عمي، لا دواء لها. فما علينا إلا أن ننضمّ إلى القوط، ونحاول الانتقام ومعاقبة روما على جحودها وعقوقها والاقتصاص من الخائن ساترنينوس.

تيطس : يا بوبليوس، يا سادتي، هل وجدتموه؟

بوبليوس : كلا يا سيدي. لكن بلوتون يبلغك هذا القول : اذا شئت أن يساعدك أهل الجحيم على الانتقام فستنال مرادك. أما العدالة فمشغولة، وربّي، على ما أعتقد، مع الإله المشتري في السماء أو في غير مكان، وستضطر إلى الانتظار بعض الوقت.

تيطس : هو يضايقني بما يخدعني به من طلب الامهال. سأرتمي في الهوة السحيقة وسأنتزع حقي من شيرون وأشده

من رجليه. نحن لسنا سوى شجيرات هزيلة يا مرقس،
ولسنا أدوات راسخة ولا جبابرة بحجم جماعة
السيكْلوب. غير أن طبيعتنا المتينة يا أخي صلبة كالفولاذ.
مع ذلك أشعر بأن الشدائد التي تنتابنا أثقل مما تتحمل
ظهورنا. وبما أن لا وجود للانصاف لا على الأرض
ولا في السماء نستعجل الآلهة لارسال العدالة إلى الأرض
كي تنجدنا وتثأر لاهانتنا واذلالنا. هيا إلى العمل، أنت
من الرماة الماهرين، يا مرقس. (يوزع عليهم الاسهم وهو
يقرأ الكتابات التي يحملها). هذا لكم، وهذا لي أنا أيضاً.
هذا اكراماً لبالاس، وهذا لعطارد، وهذا لكايوس، وهذا
لزُحَل. ولكن لا شيء لساترنينوس. فالأولى أن تباشروا
اطلاق سهامكم في الهواء، ثم إلى الهدف، يا فتيان.
اطلق سهمك أولاً، يا مرقس، حين أطلب منك ذلك.
اقسم بشرفي اني امسكت الريشة كما يجب ولم يبقَ
من إلهٍ لم يُلبِّ طلبه.

مرقس : يا أبناء عمي، سدّدوا جميع سهامكم في اتجاه البلاط.
لنحطم كبرياء الامبراطور.

تيطس : والآن يا سادتي اطلقوا سهامكم (يطلقون سهامهم باتجاه
القصر). أهنئك يا لوسيوس على براعتك. أيها الفتى العزيز،
أصبْ برج العذراء، وأصب بالاس.

مرقس : أنا أرمي سهمي الى ما بعد القمر بميل واحد. وقد

وصلت رسالتك إلى الإله المشتري في هذه اللحظة.

تيطس : بوبليوس، يا بوبليوس، ماذا فعلت؟ انظر، انظر سهمي قد أصاب أحَد قرنَيْ الثور في برجه العالي.

مرقس : ما هي هذه اللعبة، يا مولاي؟ حالما أصاب بوبليوس قرن الثور الذي جُرح، سدّد باريس ضربة شديدة زعزعت قرني الحَمَل وأسقطتهما في وسط الساحة. ومن وجدهما؟ صديق الامبراطورة الناعم. فضحكت وقالت للبربري انه لا يستطيع أن يتصرّف خلافاً لذلك، بل سيناولها حالياً لسيده.

تيطس : حسناً. ادخلت السماء السرور على قلب سيادته. (يدخل فلّاح يحمل سلة وزوجاً من الحمام). ها هي أخبار من السماء، يا مرقس، ها قد وصل البريد. ما وراءك يا بليد؟ هل لديك رسائل؟ هل سأربح الدعوى؟ ماذا يقول الإله المشتري ذو القوة والجبروت؟.

الفلاح : المسؤول عن المشنقة يقول انه فكّكها لأن الرجل لن يشنق في الأسبوع القادم.

تيطس : لكني أسألك : ماذا قال الإله المشتري؟

الفلاح : أنا تعب يا سيدي ولا أعرف الإله المشتري. لأني لم أشرب كأساً واحدة معه.

تيطس : هذا أمر غريب. أولست أنت من يحمل...

الفلاح : أنا أحمل الحمام فقط، يا سيدي.

تيطس : اذاً أنت لست نازلاً من السماء.

الفلاح : من السماء؟ لا، يا سيدي، لم أصعد أبداً إلى هناك. لا سمح الله أن أجسر على الاستعجال للذهاب إليها وأنا في شرخ الشباب. وربّي، أنا أذهب حاملاً حمامي إلى المحكمة لأتدبّر أمر مشاجرة حدثت بين عمي وأحد رجال الامبراطور.

مرقس (لتيطس) : هذا ممتاز يساعدنا على نقل التماسك وتلافي ما لا تحمد عقباه. دعه إذاً يقدّم الحمام للامبراطور من قبلك.

تيطس : قل لي : هل باستطاعتك أن ترفع إلتماساً لطيفاً إلى الملك؟

الفلاح : أبداً أنا لم يمكنّي طوال حياتي أن أقول كلمة واحدة لطيفة.

تيطس : اقترب من هنا يا غبي، ولا تضايقني، بل قدّم هذا الحمام إلى الامبراطور، وأنا أضمن لك ان تصل إلى حقك. كفى، كفى. في هذه الأثناء، أليك هذا المبلغ من المال كأجر. اعطوني ريشة وصبراً. هل تعرف، يا مغفّل، أن تسلّم التماساً بلطفٍ.

الفلاح : نعم يا سيدي.

تيطس : اذاً إليك هذا الإلتماس. وحالما تمثل بين يدي الامبراطور، عليك أولاً أن تركع وأن تقبّل قدمه، ثم أن تقدّم له

ما تحمله من الحمام. وحينئذ تنتظر مكافأتك. سأكون
إلى جانبك. المهمّ أن تتصرّف بشجاعة.

الفلاح : أضمن لك ذلك، يا سيدي. فدعني أتصرّف.

تيطس : هل لديك سكين يا غبي؟ تقدم وأرني اياه. خذ، يا
مرقس، وغلّفه بالإلتماس، لأنك كتبته بصيغة التواضع
والاستعطاف. وبعد أن تسمله الامبراطور، اطرق بابي
وبلغني ما يقوله لك. (يخرج).

الفلاح : نهارك سعيد. أنا ذاهب.

تيطس : هيا يا مرقس، هيا نذهب. اتبعني، يا بوبليوس (يخرجان).

المشهد الرابع

في باحة القصر

(يدخل ساترنينوس وتامورا وشيرون وديمتريوس وسادة وغيرهم.
ساترنينوس في يده السهام التي أطلقها تيطس).

ساترنينوس : ألا ترون، يا سادة، ان في الأمر اهانة؟ هل شاهدتم
يوماً امبراطور روما فريسة الهواجس بسبب ما يحيق
به من المشاكسات والمضايقات نتيجة تمسكه بالحق،
وبدل الشكر لا يلقي سوى الازدراء؟ تعلمون يا سادة،
كما تعلم الآلهة القديرة، مهما أحدث هؤلاء المشاغبون

من ضجة لإقلاق راحتنا، ومهما همسوا في آذان الشعب من تهم، لا شيء يتمّ بدون فرض القانون لإيقاف وقاحة أبناء اندرونيكوس العجوز عند حدهم. وبحجّة الأحزان التي تطغى على تفكيره، هل يجوز أن ينالنا استبداد كرهه وتحدّيه وتهجّمه؟ ها هو الآن يبتهل إلى السماء لتنصفه من أذانا. فهذا موجّه إلى الإله المشتري، وهذا إلى عطارد، وهذا أيضاً إلى أبولون، وهذا إلى اله الحرب، وكلها همسات سريعة .تنتشر في شوارع روما. فماذا يعني هذا التصرّف سوى الحطّ من كرامة مجلس الشيوخ والاحتجاج على ما يعتبرونه ظلماً من قبلي؟ هذا في الحقيقة هو مزاج سميح؟ أليس كذلك؟ يا سادتي؟ كأنهم يدّعون ان لا عدالة في روما. لكن، اذا قيّضت لي الأقدار أن أعيش، لن أدع مظاهر جنونهم تصبح مطيّتهم الى تحقيري. سيعلم هو وذووه أن العدل يتنفّس برئتيّ أنا ساترنينوس. فاذا غفا قليلاً هذا العدل سأعرف كيف أوقظه ليهلك في غضبته أوقح متآمر في الكون.

تامورا : يا مولاي الفاضل، يا مولاي المحبوب ساترنينوس، يا سيد حياتي ومالك تفكيري، هدّئ روعك، وسامح أخطاء شيخوخة تيطس، واعتبرها صادرة عن الحزن الذي سببه له فقد أولاده البواسل، وهي خسارة فادحة سحقت قلبه الأبوي. أرجوك ان تواسيه في مصابه عوضاً عن أن

ما تحمله من الحمام. وحينئذ تنتظر مكافأتك. سأكون إلى جانبك. المهمّ أن تتصرّف بشجاعة.

الفلاح : أضمن لك ذلك، يا سيدي. فدعني أتصرّف.

تيطس : هل لديك سكين يا غبي؟ تقدم وأرني اياه. خذ، يا مرقس، وغلّفه بالإلتماس، لأنك كتبته بصيغة التواضع والاستعطاف. وبعد أن تسمله الامبراطور، اطرق بابي وبلغني ما يقوله لك. (يخرج).

الفلاح : نهارك سعيد. أنا ذاهب.

تيطس : هيا يا مرقس، هيا نذهب. اتبعني، يا بوبليوس (يخرجان).

المشهد الرابع

في باحة القصر

(يدخل ساترنينوس وتامورا وشيرون وديمتريوس وسادة وغيرهم.
ساترنينوس في يده السهام التي أطلقها تيطس).

ساترنينوس : ألا ترون، يا سادة، ان في الأمر اهانة؟ هل شاهدتم يوماً امبراطور روما فريسة الهواجس بسبب ما يحيق به من المشاكسات والمضايقات نتيجة تمسكه بالحق، وبدل الشكر لا يلقي سوى الازدراء؟ تعلمون يا سادة، كما تعلم الآلهة القديرة، مهما أحدث هؤلاء المشاغبون

من ضجة لإقلاق راحتنا، ومهما همسوا في آذان الشعب من تهم، لا شيء يتمّ بدون فرض القانون لإيقاف وقاحة أبناء اندرونيكوس العجوز عند حدهم. وبحجّة الأحزان التي تطغى على تفكيره، هل يجوز أن ينالنا استبداد كرهه وتحدّيه وتهجّمه؟ ها هو الآن يبتهل إلى السماء لتنصفه من أذانا. فهذا موجّه إلى الإله المشتري، وهذا إلى عطارد، وهذا أيضاً إلى أبولون، وهذا إلى اله الحرب، وكلها همسات سريعة تنتشر في شوارع روما. فماذا يعني هذا التصرّف سوى الحطّ من كرامة مجلس الشيوخ والاحتجاج على ما يعتبرونه ظلماً من قبلي؟ هذا في الحقيقة هو مزاج سميح؟ أليس كذلك؟ يا سادتي؟ كأنهم يدّعون ان لا عدالة في روما. لكن، اذا قيّضت لي الأقدار أن أعيش، لن أدع مظاهر جنونهم تصبح مطيّتهم الى تحقيري. سيعلم هو وذووه أن العدل يتنفّس برئتيّ أنا ساترنينوس. فاذا غفا قليلاً هذا العدل سأعرف كيف أوقظه ليهلك في غضبته أوقح متآمر في الكون.

تامورا : يا مولاي الفاضل، يا مولاي المحبوب ساترنينوس، يا سيد حياتي ومالك تفكيري، هدّئ روعك، وسامح أخطاء شيخوخة تيطس، واعتبرها صادرة عن الحزن الذي سببه له فقد أولاده البواسل، وهي خسارة فادحة سحقت قلبه الأبوي. أرجوك ان تواسيه في مصابه عوضاً عن أن

تلاحقه على ما بدر منه من اهانة بصفته احقر الرجال أو أعظمهم. (على حدة) هكذا يليق بالعبقري، اكراماً لي أنا تامورا، ان يداري الأمور. انما انا أمسكت بك بالجرم المشهود، يا تيطس، وسيُسْفك دمك حتى آخر نقطة. فهارون بارع وسيتدبّر الأمر بالحسنى ويرسي المركب على شاطئ السلامة والأمان. (يدخل الفلاح) هل تريد أن تكلمنا يا صاح؟

الفلاح : طبعاً يا سيدتي، إن كنت أنتِ صاحبة الجلالة الامبراطورة؟

تامورا : أجل أنا الامبراطورة. وها هو الامبراطور جالس هناك.

الفلاح : أهذا هو؟ حفظته السماء وأنعمت عليه بالحظ السعيد. أنا آتٍ إليك برسالة وبهذا الزوج من الحمام

(يقرأ الامبراطور الرسالة).

ساترنينوتش (يشير إلى الفلاح) : هيا خذوه، واشنقوه حالاً.

الفلاح : كم عليّ أن أدفع من المال؟

تامورا : نصيبك الشنق، يا مغفل.

الفلاح : نصيبي الشنق؟ وهل جزائي على اخلاصي، أن أقدّم عنقي إلى حبل المشنقة؟ (يخرج بمرافقة الحراس).

ساترنينوس : ما هذه الاهانة الفظيعة؟ هل كتب عليّ أن أتحمّل شناعة هذه الوقاحة، كما لو كان هؤلاء الأبناء الخونة الذين

ماتوا حسبما يقتضيه القانون، نالوا عقابهم على قتلهم أخي، وقد ذُبحوا بموجب أوامري، بينما البائس المسكين يُجرّ من شعره هنا؟ فلا العمر ولا الكرامة لن يشفعا بي لديهم؟ ولأجل هذه السخرية المنحطة لا بدّ من أن أضرب عنقك بوحشية شرسة أنت يا من ساهمت في رفعي إلى سدّة الحكم وجعلي سيد روما.(يدخل أميليوس). ما وراءك من الأخبار، يا أميليوس؟

اميليوس : الى السلاح، هيا إلى السلاح، يا سادة. فروما لم يتسنَّ لها ظرف أنسب من هذا للحذر والاستغاثة. أما القوط فتطاولوا علينا، وبجيش لجب حازم متعطّش إلى السلب والنهب، يزحفون رأساً لمقاتلتنا بقيادة لوسيوس ابن العجوز اندرونيكوس الذي يهدّد في سياق انتقامه بأن يجاري كوريولانوس في ضراوته.

ساترنينوس : بلغني أن عدوّنا لوسيوس هو الآن قائد القوط. وهذا النبأ أقلقني وحملني على إحناء رأسي كالأزهار الذابلة تحت وطأة الصقيع، وكالعشب الذي قصفته رياح العاصفة. أجل اقتربت محنتنا لأن الشعب يحبه إلى حد الجنون. وقد سمعت الناس مراراً يردّدون عندما كنت أتجوّل بينهم متخفيًّا، ان نفي لوسيوس كان ظلماً وبهتاناً، وهم يتمنون أن يكون لوسيوس هذا امبراطورهم.

تامورا : لماذا تخشاه؟ أوليست مدينتك قوية لتتحدّاه؟

ساترنينوس : أجل، لكن المواطنين يفضّلون لوسيوس وسيتخلّفون عني ويناصرونه.

تامورا : أيها الملك، فكّر بصفتك كأمبراطور. هل تحتجب الشمس اذا طارت هذه الذبابات في فلكها؟ وهل يخشى النسر زقزقة صغار العصافير؟ وهو لا يهتمّ بما يعنيه صوتها، لأنه واثق جداً بأن ظل جناحيه يخنق تغريدها في حناجرها. وهكذا باستطاعتك اخراس سفسطات روما. كن اذاً مرتاح البال، واعلم ايها الامبراطور، اني سأسحر اندرونيكوس العجوز بحلو كلامي الذي سيزعزع كيانه بصورة أفتك من السمّ الزعاف والعفص المستطاب في أوصال النعجة الجشعة. فالأوّل يجرحه الطُعْم والأخرى يخنقها طيب المرعى

ساترنينوس : لكن تيطس لن يتوسّل إلى ابنه لصالحنا

تامورا : اما اذا توسّلت إليه أنا تامورا، فيسايرني حتماً لأني أعرف كيف أدغدغ تقدّمه في السن، وأغرقه بوعودي الذهبية، واستولي على قلبه الحصين. لأني أعرف طريق أذنه الصمّاء وقلبه لا يسعه أن يرفض عباراتي المعسولة. (لإميليو). أنت اسبقني وكن سفيري. قل له ان الأمبراطور يطلب مقابلة المحارب لوسيوس، ويحدد له موعداً في بيت أبيه العجوز أندرونيكوس.

ساترنينوس : قم يا أميليوس بهذه المهمة بشرف، واذا تشبث بتأمين

وضعه وطلب استبقاء بعض الرهائن، قل له أن يطلب
جميع الضمانات التي يريدها.

اميليوس : سأنفّذ أوامرك بدقة وسرعة. (ويخرج).

تامورا : والآن أنا ذاهب لمقابلة اندرونيكوس العجوز ولأدعوه
بكل ما أوتيت من مكر ودهاء إلى سحب المحارب
الفخور من بين جماعة القوط. فأستردّ، أيها الامبراطور
صفاء ذهنك وادفن مخاوفك في حسن تصرفي.

ساترنينوس : اذهب، مع اطيب تمنياتي لك بالنجاح في اقناعه.

(يخرجان).

الفصل الخامس

المشهد الأول

في الطريق قرب روما

(تصدح الموسيقى ويدخل لوسيوس وجماعة القوط وطبولهم تقرع وأعلامهم تخفق).

لوسيوس : ايها المحاربون المغاوير، يا أصدقائي الأوفياء، وصلتني من روما العظيمة رسائل تثبت الحقد الذي يضمره الامبراطور، وتشوّق الشعب إلى استقبالنا بين صفوفه. وهكذا يا سادتي النبلاء، يمكننا أن نفرض أنفسنا، لا سيما بعد ما تغنّينا به من رغبة ومن لهفة الى الانتقام عمّا لقيناه من اهانة ومن عذاب بسبب تعلقنا بروما. وها قد جاء دورنا للتشفّي ثلاثة أضعاف ما قاسيناه.

القوطي الأول : أيها الشاب الباسل،[1] ابن اندرونيكوس الكبير، أنت الذي يرهب ذكرك الجماهير ويتلألأ اسمك كالأمل المنقذ، أنت يا من أفعالك وانتصاراتك المشرّفة تكافئها

الآلهة نكاية بروما الجاحدة، يمكنك فعلاً أن تتّكل علينا.
فنحن مستعدون لأن نتبعك الى حيث تقودنا بحكمة وشهامة في أشدّ أيام الصيف حرًّا، ورغم جيش النحل العاقص الذي يتبع ملكته في حقل الزهور العطرة لننتقم من اللغينة تامورا.

جميع أفراد القوط : نحن على أتم الاستعداد لترديد ما يقال هنا عنه.

لوسيوس : أشكره بتواضع، وأشكركم جميعاً بصدق وإخلاص. لكن، من الآتي إلى هنا برفقة هذا القوطي المفتول العضلات؟

(يدخل أحد أفراد القوط يقود هارون الحامل ابنه بين ذراعيه).

القوطي الثاني : أيها اللاّمع لوسيوس، لقد ابتعدت أنا عن فرقنا لأتأمل اطلال دير قديم، وحين كنت أحدّق بانتباه في بقايا الصرح سمعت بغتة صوت ولد يتعالى عند أسفل السور، فأسرعت الى مصدر الصياح وتبيّنت صراخاً يعنّف الولد المروّع هكذا: « اسكت أيها الأسمر القاتم الصغير، يا نصفي ونصف أمك، لو لم يُشر لونك إلى ابن من أنت، ولو لم تمنحك الطبيعة سحنة والدتك، أيها الشرير، لكنت اصبحت امبراطوراً. لكن، عندما يكون الثور والبقرة كلاهما بلون أبيض كاللبن، لن ينجبا عجلاً

أسود كالفحم. اسكت أيها اللعين، اسكت! (وفيما المتكلّم يوبّخ الولد هكذا أضاف): «عليّ أن آخذك إلى شخص أمين من القوط. وحالما يعرف انك ابن الامبراطورة سيعتني بك بحنان اكراماً لوالدتك». فبناءً على ذلك، وقد أشهرت سيفي، سأنقضّ على الرجل الذي سأباغته وأقوده إلى هنا، لتعامله كما تقتضي الضرورة.

لوسيوس : ايها القوطي الكريم، إعلم ان الشيطان المتجسّد، قد استولى على يد اندرونيكوس النبيل، وان هذه اللؤلؤة هي التي اجتذبت انظار الأمبراطورة، وأنها ثمرة الزنى البغيض المدمّر. تكلّم أيها المغفّل، يا صاحب العينين المختلفتيْ اللون أين كنت تريد أن تحمل هذه الصورة الشبيهة بوجهك الجهنمي. لماذا لا تتكلم؟ هل أنت أطرش؟ لم اسمع منك كلمة واحدة. هيّئوا الحبل، أيها الجنود، واشنقوه متدلياً من هذه الشجرة، وإلى جانبه هذا اللقيط ثمرة دعارته.

هارون : لا تمسّ هذا الطفل بأذى، لأن دماً ملكياً يسري في عروقه.

لوسيوس : وهو كثير الشبه بوالده، ولن يكون أفضل منه. اشنقوا الطفل أولاً لكي يتألم أبوه لموته ويعذب منظره قلبه الحقود. اجلبوا لي سلّماً

(يُؤتى بسلّم ويسند إلى شجرة ويجبر هارون على الصعود اليها).

هارون : خلص الولد يا لوسيوس، وخذه من قبلي إلى الأمبراطورة. فاذا فعلت ذلك اطلعك على أمور مذهلة تهمّك كثيراً. واذا لم تشأ، فليتمّ ما تفرضه الأقدار، ولن أبوح بكلمة واحدة. وليشملكم الانتقام جميعاً.

لوسيوس : تكلّم، واذا أعجبني ما تقوله تركت ولدك يعيش، وتكفّلت بتربيته.

هارون : اذا أعجبك ما أقول؟ أؤكد لك يا لوسيوس، ان ما سأقوله سيزعجك لأني سأحدثك عن جريمة قتل وعن اغتصاب وعن مجزرة رهيبة وعن أفعال مخزية وتصرفات مشينة وعن دسائس ومؤامرات وعن خيانات وجرائم يرثى لها قد نفذت بدون رحمة ولا شفقة. كل هذا سأدفنه في قبري اذا أقسمت لي بأن ابني سيعيش.

لوسيوس : إكشف عن سرّك. فأُعلن أنا ان ابنك سيعيش.

هارون : أقسمْ، وأنا بعدئذ ابتدئ.

لوسيوس : بماذا أقسم لك؟ أنت لا تؤمن بأي إله. وهكذا لا أرى كيف ستصدّق قسمي.

هارون : ما همّك، ان كنت لا أؤمن بإله، وأنا بالفعل غير مؤمن. لكني أعلم انك تقيّ، وان لك ضميراً حياً، وانك مغرم بعشرين نوعاً من التوسّلات والتضرّعات التي شاهدتك تمارسها بعناية. لذلك اطلب قَسَمَك. في الحقيقة أنا لا أجهل ان الأبله يعتبر أتفه شيء، كأنه إله يتمسّك

بالحلفان الذي يُعتمد به على هذا الاله ولذلك أتمسك بالقَسَم. اذاً ستحلف لي بالاله الذي تعتبره صالحاً مهما كان، ان تصون حياة ابني وتغذّيه وتربّيه. وإلا، لن أبوح لك بكلمة.

لوسيوس : بحقّ إلهي، اقسم لك اني سأفعل.

هارون : أولاً، إعلم جيداً ان ابني هذا هو ابن الامبراطورة.

لوسيوس : تبًّا لها من امرأة شهوانية فاسقة لا ترتوي.

هارون : ليس في الأمر سوى عمل انساني بالنسبة الى ما سأطلعك عليه. ان بسيانوس قتله ابناه. ولقد قطعا لسان اختك بعد أن اغتصباها وبترا لها يديها وتركاها على ما شاهدتماها فيه من حالة أليمة.

لوسيوس : أيها الشقي الغبي، أو تسمّي هذه حالة أليمة؟

هارون : أجل، وقد غسلت جراحها بعد أن قطعت أوصالها وتركت في وضع يرثى له. وهذا الوضع بالذات هو سبب ابتهاج من ألحقا بها ما أصابها من محنة.

لوسيوس : سحقاً للوحشين البربريّين نظيرك أنت يا عديم الضمير.

هارون : بالفعل كنت أنا استاذهما، وعلّمتهما أساليب العنف والأذى، وزرعت في صدرهما حب الفحش والتعذيب كما فعلت بوالدتهما قبلهما، وقد ساعدتني على تأصيل هذا الشر في قلبهما. أنا واثق بأن هذه الطريقة الدموية في بلوغ مآربهما قد تعلّماها حتماً مني، أنا البارع في

فنون الفتك والتنكيل. ولقد درّبت أخويك على سلوك هذا السبيل الشائك الذي أدّى إلى مقتل بسيانوس. فأنا كتبت الرسالة التي وجدها والدك، وأنا خبّأت الذهب المذكور في الرسالة، بالاتفاق مع الملكة وولديها. ما هو العمل الذي حملك على التنهّد، ولم تكن لي فيه حصة الأسد بطريقة مشؤومة؟ لقد ارتكبت المنكر لكي أحظى بيد أبيك المقطوعة، وحالما اصبحت في حوزتي انسحبت ووقفت جانباً أرقب، وكاد فؤادي يتوقف عن الخفقان من شدة الضحك. كنت أشاهده من شق السور حين استلم لقاء يده المبتورة، رأسَيْ ولديه المقطوعين. وكنت أتأمل دموعه وأضحك من كل قلبي حتى ابتلّت عيناي بدموع الفرح بينما عيناه هو امتلأتا بدموع الحزن والقهر، وحين سردت للأمبراطورة تفاصيل الحادث، ابتهجتْ فرحاً ورضًى، ولتكافئني على هذه المعلومات، جادت علي بعشرين قبلة.

واحد من القوط : ماذا تقول؟ هل تروي كل هذه القصة ولا تحمّر وجنتاك خجلاً؟

هارون : بلى، لقد احمر وجهي نظير الكلب الأسود الوارد ذكره في المثل.

لوسيوس : وبعد كل هذه الأفعال القبيحة التي يندى لها الجبين خجلاً، لا يبدو عليك أي أثر للأسف.

هارون : بل آسف لعدم قيامي بألف مشكل غيرها. اذ في هذه اللحظة ذاتها، أنا ألعن الآن، رغم قناعتي بأن هناك قليلاً من الأيام التي تجوز فيها اللعنة، ألعن اليوم الذي لم أرتكب فيه سيئة بارزة فأقتل رجلاً على سبيل المثال أو على الأقل أدبّر قتله، وأغتصب عذراء أو أشترك في مؤامرة كهذه، وأتهم بريئاً أو ألوّث سمعته، وأخلق عداوة مميته بين صديقين أو أحمل الوحوش من البشر المساكين على أن يتصارعوا ويدقوا أعناق بعضهم بعضاً، وأضرم النار في أهراء القمح أو البيادر ليلاً أو أوعز لأصحابها بأن يطفئوها بدموعهم. وغالباً ما نبشت الأموات من القبور وأوقفت جثثهم على أبوب أعزّ أصدقائهم حين يكاد هؤلاء ينسون آلام فَقْدهم، وعلى جلد كل جثة كما أفعل بقشرة شجرة كتبت عليها برأس سكيني بحروف رومانية : لكي لا تنتهي آلامكم كما متّ أنا. لقد قمت بأعمال مريعة لا تُحصى، بهدوء كما لو قتلت ذبابة أو لا شيء يحزن قلبي أكثر من أن لا أقوم بألف مشكل غيرها.

لوسيوس : أنت أحطّ شيطان على وجه البسيطة، ولا بد من أن تهلك بدون رحمة، شنقاً بعد تعذيبك ببطء وضراوة.

هارون : اذا كان للشياطين من وجود، فأنا أريد أن أكون أحدها، وأن أعيش وأحترق في اللهيب الدائم، بشرط أن أكون

بصحبتك في جهنم، وأن أتمكن من تعذيبك بوسائلي الخاصة.

لوسيوس : اغلقوا فمه، يا سادة، ولا تدعوه يتكلم بعد الآن.

(يدخل أحد أفراد القوط).

القوطي : يا مولاي، هذا رسول روما يريد أن يمثل بين يديك.

لوسيوس : ليقترب (يدخل أميليوس). أهلاً بك يا أميليوس. ما هي أخبار روما؟

اميليوس : يا مولاي لوسيوس، وأنتم يا أمراء القوط، الأمبراطور الروماني يسلّم عليكم جميعاً بلساني؟ وقد علم بأنكم تسلّحتم، فطلب مقابلتك في بيت أبيك. وهو يدعو إلى المطالبة برهائنكم، ليسلّمك اياهم حالاً.

القوطي الأول : ما رأي قائدنا في هذا الأمر؟

لوسيوس : يا أميليوس، على الامبراطور أن يقدّم ضمانته لوالدي ولعمي مرقس كي نمضي اليه. هيا نذهب.

(تصدح الموسيقى، ويخرجان).

المشهد الثاني

في مدخل بيت تيطس.

(تدخل تامورا وشيرون وديمتريوس متنكّرين).

تامورا : هكذا في هذا الهندام الحزين الغريب، سأذهب إلى اندرونيكوس، وأقول له: انا موفد الانتقام، مرسل الأرض لأنضمّ اليه، وأعمل ما يرضي نواياه الخبيثة. اطرق باب حجرته حيث يقال انه يحبس أنفاسه، ليجترّ أفكاره وخططه الانتقامية الهائلة. قل له ان موفد الانتقام حضر للانضمام اليه وانزال الدمار بأعدائه.

(يطرق الباب، فيفتح له تيطس).

تيطس : من يشوّش عليّ تأمّلاتي؟ هل تتسلّى باقتحام بابي لكي تفسح المجال لأفكاري أن تتبعثر وتتبدّد، ولجهودي أن تذهب أدراج الرياح؟ أنت مخطئ لأن ما أنا مصمم على عمله قد سجلته هنا بالدم عوضاً عن المداد، وما كتبته سأنفذه حتماً بحذافيره.

تامورا : جئت أفاوضك، يا تيطس.

تيطس : لا أريد أن أسمعك. ما هو مدى تأثير كلامي، حين لا تكون يدي على أتمّ الاستعداد لمساندته بأية حركة.

أنت متفوّق عليّ فلا تلحّ اذاً في الطلب.

تامورا : لو عرفتني حق المعرفة لفاوضتني.

تيطس : أنا لست مخبولاً، ولا أعرفك كما يجب. أنا أناصر هذا الساعد المبتور، وأؤيد هذه الكتابة الحمراء اللون، وأوافق على هذه الأخاديد التي حفرها الألم والهم، كما أوافق أيضاً على النهار المتعب والليل القلق، وأؤيد جميع الآلام وأعترف نظير امبراطورنا الرائع، بمقدرتك يا تامورا. أولستِ قادمة للنيل من يدي الثانية؟

تامورا : اعلم أيها الرجل الكئيب اني لست تامورا عدوّتك بل أنا صديقتك. أنا موفدة الانتقام القادمة من مملكة الجحيم لأهدئ روع الصقر الذي يسطو على أفكارك ويثير روح الثأر في صدر أعدائك. أنزل كي تحتفي بقدومي إلى هذا العالم، تعال لتحدّثني عن الاغتيال وعن الموت. ليس من كهف عميق، ولا من كمين مباغت ولا من ظلمة مخيفة ولا من وديان سحيقة يغمرها الضباب حيث القتل والاجرام والاغتصاب البشع جميعها تتزاحم غائصة في مكائدها بدون أن تدخل في صميمها فأهمس في آذانها اسمي المريع كموفدة الانتقام الذي يرتجف لذكره أشرس المعتدين.

تيطس : هل أنت حقاً موفدة الانتقام؟ وأنت قادمة لتقضّي مضجعي وتضاعفي همومي وهواجسي.

تامورا : أجل، انزل اذاً واستقبلني.

تيطس : أدّي لي خدمة قبل أن أوافيك. هنا إلى جانبك يقف شبح الاغتصاب وشبح الاغتيال. برهني لي اذاً على انك موفدة الانتقام، إطعنيهما بخنجرك واسحقيهما سحقاً بدواليب مركبتك، فلا أتأخر عن الحضور إليك لأكون سائق عربتك وأرافقك في سباقك المدوّخ حول الكرة الأرضية. سأستحصل على جياد اصيلة سوداء كالأبنوس، تنهب الأرض بمركبتك نهباً، وسأكشف عن القتلة في مخبأ إجرامهم، وحين تمتلئ عربتك بالجماجم، سأقفذ إليها وأركض معك نظير خادم مطيع أمين طوال اليوم منذ بزوغ الشمس في المشرق حتى سقوطها في لجج البحار غرباً. وفي كل يوم أقوم بواجبي الشاق، بشرط أن تحطّم وتغتصب وتغتال هؤلاء الأقزام.

تامورا : هؤلاء هم وزرائي، وسيلازمونني.

تيطس : هل هم حقاً وزراؤك؟ ما هي اسماؤهم؟

تامورا : الاغتصاب والاغتيال والظلم. وقد دُعُوا هكذا لمعاقبة المهذبين على جرائمهم.

تيطس : يا الهي، كم يشبهون أبناء الامبراطورة. وأنتِ كم تشبهين الامبراطورة. وانما نحن البشر المساكين، عيوننا البائسة يبهرها الهوس والضلال. فيا أيها الانتقام العذب، ها أنا ذا قادم اليك، واذا كان ضمك الى صدري بذراع واحدة

يرضيك فلن أتأخّر عن معانقتك حالاً.

(يغلق باب حجرته).

تامورا : هذا التودّد اليه يلائم جنونه. ومهما ابتدعت من أفكار لترويج سيطرة الهذيان عليه، ساندْها وأيّدْها بكلامك. لأنه الآن يعتبرني بحق موفدة الانتقام الرهيب، وهو مقتنع بهذه الفكرة الجهنّميّة، فاحمله على طلب مجيء لوسيوس ابنه. وحين استميله أثناء المأدبة، سأجد طريقة عملية بارعة لابعاد جماعة القوط وتشتيتهم نظراً إلى تعدد أهوائهم، أو على الأقل اجعلهم ينظرون اليه بعين العداء والحذر. ها هوذا قادم. عليّ أن أتابع مسعاي للوصول إلى مأربي.

(يدخل تيطس).

تيطس : عشتُ طويلاً في وحدتي بسببك. كن أنت موفد الانتقام الرهيب في بيتي التعيس. وأنتِ أيضاً يا أشباح الأغتصاب والاغتيال والظلم، أرحب بكِ. كم تشبهين الامبراطورة وأبناءها. سيكتمل عددك حين يكون بصحبتك أحد البرابرة. أولم تجدي في جميع أنحاء الجحيم شيطاناً مثله؟ أنا واثق بأن الامبراطورة لا تحرّك ساكناً بدون أن يكون البربري إلى جانبها. ولكي تمثّلي ملكتنا على الوجه الأكمل، لا بد لكِ من شيطان نظيره. على كل

حال، أهلاً وسهلاً بكِ كما أنتِ. ماذا علينا أن نفعل لأجلك؟

تامورا : ماذا تريد أن نفعل، يا اندرونيكوس؟

ديمتريوس : أرني قاتلاً، وأنا أتولى أمره.

شيرون : أرني لئيماً إرتكب اغتصاباً، وأنا أقوم بمعاقبته.

تامورا : أرني ألف مخلوق ممن أساؤوا إليك وأنا أقاصصهم جميعاً.

تيطس : أنظر الى الشوارع الحقيرة في روما، وعندما تجد قاتلاً بارعاً يشبهك اطعنه بخنجرك لأنه قاتل، واذهب بصحبته. وعندما تصادف غيره يشبهك أيضاً، أيها المغتصب، اطعنه بخنجرك لأنه خاطف محتال، ورافقهما. أما في بلاط الامبراطور، فهناك ملكة يصحبها بربري، باستطاعتك أن تعرفها بسهولة لأنها على صورتك تماماً، وتشبهك من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك. فأرجوك أن تخصّهما كليهما بميتة وحشية تليق بهما، لأنهما كانا شريرين معي ومع أهلي.

تامورا : ها قد زوّدتنا بكل المعلومات، وسنتصرّف بموجبها. انما تفضل، يا اندرونيكوس الكريم، وارسل في طلب لوسيوس ابنك المثلث البسالة الذي يقود باتجاه روما جيشاً معادياً من القوط المسلحين، واطلب منه أن يكون ضيفك في المأدبة التي تولمها له. وعندما يشترك في

حفلتك الفخمة، سآتي بالامبراطورة وأبنائها والامبراطور
ذاته وجميع أعدائها لينحنوا ويسجدوا أمامك. واذ
يصبحون تحت رحمتك، تصبّ عليهم جام غضبك
وحقدك. ما رأي اندرونيكوس بهذا المشروع.

تيطس (ينادي) : يا أخي مرقس، شقيقك الحزين تيطس يناديك.
(يدخل مرقس). يا عزيزي مرقس، إذهب إلى ابن أخيك
لوسيوس الذي تجده وسط جماعة القوط. وقل له أن
يأتي برفقتك ومعه بعض أمراء القوط البارزين. اطلب
منه أن يعسكر مع جنوده حيث هم. واعلمه بأن
الامبراطور والامبراطورة سيشاركاننا في حفلتنا ووليمتنا.
اصنع هذا اكراماً لي. وليتصرّف لوسيوس كما أوصيته،
اذا كان يريد أن يبقى أبوه العجوز على قيد الحياة.

مرقس : سأفعل ما تشاء، وأعود سريعاً (يخرج).

تامورا : أنا الآن ذاهبة لأقوم بمهمتي، وسآتي بوزرائي.

تيطس : لا، لا. أبقي القاتل أو المغتصب برفقتك، وإلّا، ناديت
أخي، وأنا لا أريد أحداً للأخذ بالثار غير لوسيوس.

تامورا (على حدة لأولادها) : ما قولكم، يا أولاد؟ أتريدون أن تبقوا
بقربي، بينما أذهب أنا إلى الامبراطور لأقول له كيف
دُبّرت مؤامرتنا المضحكة. سايروا مزاجه وداعبوه وظلّوا
معه إلى حين رجوعه.

تيطس (على حدة) : أنا أعرفهم جميعاً، وإن ظنّوني مجنوناً، وسأوقعهم

في فخّهم بالذات. تبًّا لهم من محتالين خبثاء مثل أمهم.

ديمتريوس : اذهبي إلى حيث يحلو لكِ، يا سيدتي، واتركينا هنا.

تامورا : إلى اللقاء، يا اندرونيكوس. فالانتقام يحوك مؤامرة ليفاجئ بها الأعداء (تخرج).

تيطس : أنا أعرف ذلك. وهكذا، يا أيها الانتقام، أقول لك إلى اللقاء.

شيرون : قل لنا، أيها العجوز، لماذا تريد أن تستعين بنا؟

تيطس : لديّ عمل سأكلّفك به يا بوبليوس. فتعال إلى هنا. وأنت يا كايوس ويا فلنْتيوس. (يدخل بوبليوس وآخرون).

بوبليوس : ماذا ترغبون؟

تيطس : هل تعرف هذين الشخصين؟

بوبليوس : يبدو لي انهما ابنا الامبراطورة، ويدعيان شيرون وديمتريوس.

تيطس : تباً لك يا بوبليوس، أنت مخطئ، فأحدهما هو الاغتيال والآخر هو الاغتصاب. اسألك أن توثقهما، يا عزيزي بوبليوس. وأنتما يا كايوس ويا فلنْتيوس أقبضا عليهما معاً. لا بد أنكما سمعتماني مراراً أتمنى هذه اللحظة التي حانت أخيراً. اربطوهما اذاً ربطاً متيناً وكمّوا فميهما لئلا يصرخا.

(بوبليوس ورفاقه يمسكون بشيرون وديمتريوس. يخرج تيطس).

شيرون : أيها الأشقياء، كفاكم مهاترة. فنحن أبناء الامبراطورة.

بوبليوس : لذلك ننفذ ما أمرنا به. كمّوا فميهما بصورة محكمة، ولا تدعوهما ينبسان ببنت شفة. هل هو موثق جيداً؟ لا تتهاونوا في شد رباطهما كما يجب.

(يرجع تيطس اندرونيكوس، ترافقه لافينيا وهي تحمل حوضاً، بينما هو يحمل سكيناً).

تيطس : تعالي، تعالي، يا لافينيا. أنظري عدوَّيْك موثوقَيْن. يا سادتي اغلقوا لهما فمَيْهما، ولا تدعوهما يُكمّماني. عليهما أن ينصتا إلى الكلام الرهيب الذي أزمع أن أتلفظ به. يا شيرون ويا ديمتريوس، كفاكما أن تعيثا في الأرض فساداً. ها هوذا الينبوع الذي لوّثتماه بأوحال سلوككما المشين. ها هوذا الصيف الجميل الذي شئتما أن يخالطه شتاؤكما المكفهرّ. لقد قتلت زوجها ومن جراء هذا الجرم البشع اثنان من أبنائها حكم عليهما بالموت. وبَتْر يدي كان خدعة مشؤومة، فبترت يداها وقطع لسانها والأهمّ من يديها ولسانها هو تلويث شرفها الذي دنس أنت بعدم انسانيتك وعنفك البغيض. ماذا تقول اذا تر تتكلم؟ أيها الوقح، ستخجل إن أنا التمست عطفة اسمع أيها الشقي، كنت أنوي أن أعذبك. فقد لي هذه اليد الوحيدة لقطع عنقك، بينما لافينيا ست

ببقايا ذراعيها الحوض الذي سيتلقّى دمك الفاسد. أنت تعلم ان أمك مزمعة أن تشترك في وليمتي باسم الانتقام، وهي تظنني مجنوناً. اسمع أيها الحقير، سأسحق عظامك وأمزجها بدمك النجس، وأصنع منهما معجوناً وأكوّن منه وعاءً، أجمع فيه رأسيكما الملعونين، وسأقول لهذه العاهرة أمك الدنيئة أن تلتهم منتوجها كما تفعل الأرض. ها هيذا الوليمة التي دعيت اليها. وها هيذا الأطعمة التي ازدردتها، لأنك عاملت ابنتي بصورة فاقت ضراوة فيلومال، وهي أشرس من برونيه. وأنا مستعد للأخذ بثأرها. فمدّا الآن عنقيكما... يا لافينيا، هيا تلقّي الدم، وعندما يكونان قد ماتا، سأسحق عظامهما واجعلها ناعمة كالكحل واجبلها بهذا المائع الأحمر الكريه، وفي هذا الوعاء سأسلق رأسيهما النجسين. هيا، هيا. على كل واحد أن يساهم في اعداد هذه الوليمة الفريدة، لكي تأتي أرهب وأشرس من وليمة المسوخ والجن (يذبحهما). والآن خذوهما لأني لا أريد أن أكون طاهياً وأجهّزهما للأكل عندما تعود والدتهما. (يخرجون).

المشهد الثالث

في الجناح المقابل لمنزل تيطس

(يدخل لوسيوس ومرقس وبعض القوط مع هارون السجين).

لوسيوس : أنا مسرور، يا عمي مرقس، بأن تكون مشيئة أبي أن أعود إلى روما.

القوطي الأول : وسرورك هو سرورنا، مهما جرى.

لوسيوس : ضع، يا عماه، في مكان أمين هذا البربري، هذا النمر المفترس، بل هذا الشيطان الرجيم، ولا تقدّم له أي طعام إلى أن يواجه الامبراطورة، لإثبات أعماله الاجرامية. وضع في مكمنٍ عدداً كبيراً من أصدقائنا، لأني أخشى أن لا يريد لنا الخير هذا الامبراطور المتقلب الخسيس.

هارون : أتمنى أن يهمس أحد الشياطين في أذني ما يخبّىء لنا الغد من تدابير جهنمية كي يقوى لساني على نفث سم الحقد الذي يطفح به قلبي.

لوسوس : اخرج من هنا، أيها الكلب المسعور، أيها الجاحد اللئيم. ساعدوا، يا سادتي، عمي على اخراجه (يخرج جماعة القوط هارون، وتصدح الموسيقى). الأبواق تعلن أن الامبراطور بات على مقربة منا.

(تسمع موسيقى جديدة. يدخل ساترنينوس وتامورا وبعض النواب وغيرهم).

ساترنينوس : ماذا جرى؟ هل في كبد السماء عدة شموس تسطع؟

لوسيوس : هل تحسب نفسك شمساً؟ أنت ما نفعك؟

مرقس : يا امبراطور روما، وأنت يا ابن أخي، باشرا المفاوضات. كل شجار يمكن حسمه بسلام. هو مستعد للاشتراك في الوليمة التي أمر باعدادها تيطس الواعي، صاحب القصد الشريف للاحتفاء بالسلم ونشر المحبة والوئام، ولأجل سعادة أهالي روما. تفضلوا اذاً وتقدموا للجلوس في أماكنكم.

ساترنينوس : بكل طيبة خاطر، يا مرقس.

(تسمع أنغام عذبة ويأخذ المدعوون أماكنهم. يدخل تيطس بلباس الطاهي، ولافينيا على وجهها حجاب، ولوسيوس الشاب وغيرهم. يضع تيطس صحناً على المائدة).

تيطس : أحيّيك، يا مولاي الكريم. أحييكِ، يا ملكتنا الموهوبة. أحييكم أيها القوط المحاربون، أحييك يا لوسيوس، أحييكم جميعاً. مهما كانت مائدتي هزيلة المآكل ستشبع شهيّتكم، فتفضلوا وكلوا مريئاً.

ساترنينوس : لماذا ترتدي اليوم هذه الملابس، يا اندرونيكوس.

تيطس : لكي أتيقن بنفسي من ذلك، ولا يعيقني شيء عن مشاركة

جلالتك والامبراطورة بحذر في هذه الولية الفاخرة.

تامورا : نشكرك جزيل الشكر، يا اندرونيكوس الكريم.

تيطس : أتمنى أن يطمئن قلب جلالتك لشعوري الصادق. مولاي الامبراطور، أرجوك أن تحلّ لي هذا المشكل: هل أحسن المغرور فرجينيوس صنعاً بتدبير مقتل ابنته بعد أن اغتُصبت ولُوّث شرفها بالعار؟

ساترنينوس : أجل أحسن صنعاً، يا اندرونيكوس.

تيطس : هل هذا منطقك، يا مولانا الحكيم؟

ساترنينوس : لأن ابنته ينبغي لها أن لا تعيش بعد ما أصابها من مذلّة كي لا تنقأ بوجودها جراح أبيها فرجينيوس.

تيطس : هذه حجة دامغة مقنعة. فهذا المثل وهذه السابقة تحذّرني بشدّة، أنا أحقر الناس، كي لا أتصرف على هذا النحو. مُوتي، أجل موتي، يا لافينيا. وليدفن عارك معك، ومع عارك عذاب أبيكِ.

(يقتل لافينيا).

ساترنينوس : ماذا فعلت، أيها الأب القاسي العديم الانسانية؟

تيطس : قتلت التي أعمت بصري بما سببته لي من دموع الحزن. فأنا لست أقل شقاءً من فرجينيوس، ولديّ ألف سبب أكثر منه لتنفيذ هذا العمل العنيف الذي قمت به أخيراً.

ساترنينوس : ماذا تقول؟ هل اغتُصِبتْ؟ هيا، قل لنا من ارتكب هذه الوحشية؟

تيطس : تفضل، وكلْ، يا مولاي. ألتمس من جلالتك أن تشاركنا طعامنا.

تامورا : لماذا قتلت ابنتك الوحيدة هكذا؟

تيطس : لم أقم أنا بهذا العمل، بل شيرون وديمتريوس. فقد اغتصباها وقطعا لسانها. هما اللذان انزلا بها هذه المصائب.

ساترنينوس : ليذهب أحد ويجلبهما حالاً إلى هذا المكان.

تيطس : هما هنا كلاهما، مشويّين في هذه الطبخة التي تتلذّذ والدتهما بازدرادها وهي تأكل من اللحم الذي هي ذاتها أنجبته. هذه هي الحقيقة، الحقيقة التي لا يتطرق اليها أدنى شك، أثبتها بحد هذا السكين المرهف.

(يقتل تامورا).

ساترنينوس : مت أنت أيضاً أيها الشقي المهووس (يقتل تيطس).

لوسيوس : هل يسع الابن أن يرى دم أبيه مهدوراً أمام عينيه؟ هذا أجر لقاء أجرٍ، وموت لقاء موتٍ.

(يقتل ساترنينوس. ويتفرّق الجمع هلعاً).

مرقس : أين أنتم، أيها الرجال، أصحاب السِحَن الواجمة؟ أهالي وأبناء روما الذين أرعدهم هذا الضجيج نظير رفّ العصافير الذي تطارده الرياح أثناء هبوب العاصفة

الهوجاء. دعوني أعلّمكم كيف تجمع السنابل المشتتة في حزمة واحدة، وهذه الأعضاء المتفرقة في جسم واحد.

سيد روماني : أجل، لِنَسْعَ إلى جعل روما تخرّ تحت ضربة تقسم ظهرها، هي المدينة التي ينحني أمامها عظماء المملكة فتجعلهم منبوذين يائسين يسومون مجتمعها أشنع المذلّات وأفظع الفواجع وأعنفها. لكن اذا كانت هذه العلامات تدل على شيخوخة هرمة، وهذه التجاعيد سببها التقدم في السن، كشاهدة على قساوة التجربة، وأنت لا تستطيع أن تتحكم بنواياك، عليك أن تستمع إلى صديق روما هذا. (للوسيوس). تكلّمْ كما فعل جدّنا في الماضي حين بلغ خطابه الرسمي الحزين أذن ديدون المصابة بمرض الهوى، وهو يصف تلك الليلة المشؤومة الملتهبة، حين فاجأ اليونان الماهرون بريام ملك طروادة. قل لنا من شنّف آذانكم، وكيف ادخلت الآلة المشؤومة التي جرحت طروادة وروما في صميم عنفوانهما. قلبي ليس مقدوداً من صخر أصمّ ولا من فولاذ، ولا يسعني أن أتذكر جميع آلامي المبرّحة بدون أن تجتاح مآقيَّ موجة من الدموع تغرق كلامي وتقطعه الغصّة في نفس اللحظة التي تثير اهتمامي وتستدرّ شفقتي. ها هو الضابط،

فليصف لكم تفاصيل الحادث الذي يدمي فؤادكم ويُفيض دموعكم.

لوسيوس : إعلموا جيداً أيها السامعون النبلاء ان اللئيمَيْن شيرون ودمتريوس قد قتلا شقيق امبراطورنا، وانهما اغتصبا أختنا، وان جرائمهما المريعة سببت قطع رأس أخوينا، والاستهتار بدموع والدنا المسكين الذي حرم بجبانةٍ من يده الباسلة وقد قاتلت بشجاعة حتى النهاية ودافعت عن عزّة روما وأودت باعدائها الى قبورهم. وأخيراً نُفيتُ ظلماً وبهتاناً، بعد أن أُغلقت الأبواب ورائي، فطردت وأجبرت على طلب النجدة من أعداء روما الذين أغرقوا أخصامهم بدموعي الصادقة واستقبلوني وضمّوني إلى صدورهم كأوفى الخلاّن. اعلموا اني، وأنا منبوذ، قد أمّنت سلام روما وبذلت دمي في سبيل كرامتها، وحوّلت عن صدرها خنجر العدو وخاطرت بحياتي. اذ كان ممكناً أن يتحوّل الخنجر إلى صدري أنا رغم ما في حنايا ضلوعي من فضيلة واخلاص. يا للأسف، أنتم تعلمون جيداً بأني لست جباناً، وان آثار جراحي تؤيّد، وهي خرساء، صدق كلامي وأفعالي واندفاعي. لكن مهلاً. يبدو لي اني أقلّل كثيراً من أهميّة ما قمت به بجدارة ورويّة. سامحوني، اذ على الرجال أنفسهم ان لا يتأخروا عن الثناء على

مآثرهم، عندما لا يجدون حولهم من ينوب عنهم في القيام بهذا الواجب المقدس.

مرقس : الآن جاء دوري للتكلّم. انظروا إلى هذا الطفل. (يشير إلى الولد الذي يحمله أحد الخدم بين ذراعيه). لقد ولدته تامورا من صلب البربري الخسيس الذي سبب كل هذه الشرور. هذا اللئيم لا يزال حياً يسرح ويمرح في منزل تيطس ليؤكد بوقاحة ان ما أقوله هو كبد الحقيقة. فاحكموا الآن اذا كان الحق بجانب تيطس في انتقامه لهذه التعدّيات التي يأباها كل شهم ينبض قلبه بالحياة. ها قد سمعتم بكل ما جرى في الواقع، فما رأيكم، أيها الرومان، هل نحن مخطئون، وما هو ذنبنا؟ أنتم من علياء مراتبكم الحالية، يمكنكم في هذه اللحظة أن ترونا نحن بقايا أسرة اندرونيكوس ورؤوسنا مطأطأة إلى الأرض وأيدينا متشابكة منقبضة، وعلى وشك أن نسقط في الهوّة، وأن نحطّم جماجمنا على الأحجار الصلبة الخشنة ونجهز على أنفسنا ونمعن في هدم بيوتنا. تكلموا يا أهالي روما. قولوا كلمة فأنا ولوسيوس أيدينا متماسكة كما ترون، نتدهور في الهاوية.

اميليوس : تعال، تعال، أيها الروماني المحترم، واصطحب امبراطورنا لوسيوس برفق، وأنت متشبّث بيده الكريمة، لأني واثق بأن جميع الأصوات ستنادي به كأمبراطورنا.

مرقس : أحييك يا لوسيوس، يا امبراطورنا الودود (للخدم). اذهبوا الى منزل تيطس الحزين واجلبوا البربري الحقير الى هنا. ليُحكم عليه بأشنع الميتات عقاباً على ما جنته يداه من منكرات دنيئة.

الرومان : نحيّيك، يا لوسيوس الفاضل كحاكم روما.

لوسيوس : شكراً، أيها الرومان. أرجو أن أكون عند حسن ظنكم بي، وأن أعالج مشاكلكم وأداوي شرور روما وأمسح الشقاء عن وجهها. لكن، أيها الشعب الكريم، أمهلني قليلاً، لأن الطبيعة فرضت عليّ هذه المهمة الشاقة. تكتّلوا جميعاً واصبروا. وأنت، يا عمي العزيز، اقترب لنسكب الدموع السخينة معاً على هذا الجثمان الطاهر. ولنطبع قبلة الوداع على هذه الشفاه الشاحبة الباردة. (يقبل تيطس). ولنغسل محياك الدامي بدموعنا الأليمة كبرهان أخير على ما يكنّه لك ابنك النبيل من حب واخلاص.

مرقس (ينحني على الجثمان) : دموع اللقاء دموع وفاء، وقُبَل اللقاء قُبَل محبة. شقيقك الأمين مرقس يغدق كل هذه المودة على شفتيك الطاهرتين. فكم وكم رقّصك على ركبتيه وضمّك الى صدره الرحيب الذي اتكأت عليه كالوسادة. وكم وكم من القصص روى لك ليسلّيك ويفرحك في حداثتك. فعرفاناً بالجميل كإبن عطوف، دعْ كم دمعة تنهمر على وجنتيك المورّدتين كأزهار الربيع. هذا ما

تتطلّبه منك الطبيعة السخية. فالأهل يواسون الأهل في حزنهم وكربتهم. قل له : الوداع، وأودعْه ضريحه مكرراً له حنانك، واستأذنْه بالانصراف.

لوسيوس الشاب : جدّي، يا جدّي، أودّ من أعماق قلبي أن أموت لكي تعود إليك الحياة. يا مولاي، لا يسعني أن أكلّمه لأن الدموع تخنق صوتي في حنجرتي عندما أحاول أن أفتح فمي. (يدخل الخدم مصطحبين هارون).

الروماني الأول : أنت يا اندرونيكوس الكئيب، ألم تنتهي أحزانك بعد؟ أصدر حكمك على هذا الخسيس الذي سبّب لك كل هذه الفواجع.

لوسيوس : ادفنوه حياً في التراب حتى صدره، ودعوا الجوع يمزق أحشاءه واتركوه هنا يلتمس الطعام بتذلّل وحسرة. وإنْ أغاثه أحد أو أشفق عليه، فموتاً يموت من جرّاء تمرّده هكذا على أوامري. هذا قراري. فليسهر بعضكم على ابقائه مطموراً في بطن الأرض.

هارون : لماذا هذا الغضب الصامت؟ لماذا هذه الثورة الخرساء أنا لست ولداً لألجأ الى توسّلات حقيرة، واندم على ما ارتكبته من ذنوب. سأرتكب ألفاً أقبح منها وأحطّ لو كنت حراً، أتصرّف على هواي. وإن كنت أتيت

عملاً صالحاً واحداً طوال حياتي، فأنا نادم عليه من أعماق قلبي.

لوسيوس : ليأخذ بعض الأصدقاء الأوفياء الأمبراطور من هنا، ويؤمّن له مثواه الأخير في ضريح أبيه. فوالدي ولافينيا سيودَعان حالاً مدفن اسرتنا. أما هذه النمرة المتمرّدة تامورا، فلا مراسم جنائزية لاكرامها ولا حداد أسفاً عليها، ولا جرس لينعيها ويعلن مواراتها الثرى، بل ألقوا جثتها إلى الوحوش الضارية بدون شفقة، اذ لا رحمة تُسدى إلى جثةِ من كان على مثالها من المشاغبات المستهترات، اسهروا على تنفيذ الحكم بصرامةٍ في البربري اللعين هارون الذي سبب لنا كل هذا الشقاء المضني. ثم نرتّب أمور الدولة ونعيدها إلى مجراها الطبيعي، لنمنع تكرار مثل الكوارث التي تؤدي بنا وبالبلاد حتماً الى الدمار والخراب.

(يخرجون).

(تمّت)